مائة سؤال عن الإسلام

للشيخ/ محمد الغزالي

دراسة

أ.د. محمد عمارة

الجزء الثالث



مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
تأسست عام ١٣٤٩ هـ - ١٩٣١م



٢٥- لماذا كان الحل الإسلامي لمشاكلنا هو الأفضل والأمثل والأنجع؟

الشعور عام بأن الأمة الإسلامية تعاني في العصر الأخير من علل معقدة ومعضلات اجتماعية كثيرة!

كانت حكومة الخلافة العثمانية تسمَّى (الرجل المريض)، ثم ذهب الرجل المريض، واقتسمت تركتَه حكوماتٌ أخرى! فهل شُفي الحكمُ العليل وصحت الشعوب المريضة، وأصبح الشرق الإسلامي موَّارًا بحركات الإصلاح ووثبات النهوض؟

لا أظن، أنَّ الحاضر ليس خيرًا من الماضي؛ فالمسلمون جميعًا والعرب خاصة يترنحون أمام ضربات (إسرائيل) التي أقامت سطوتها على أنقاضهم المادية والأدبية.

إن هذه الأمة الإسلامية لا تصلح إلا بدينها وحده، بعد استكمال العناصر الناقصة منه -وهي خطيرة- وبعد استبعاد الخرافات الملصقة به -وهي كذلك..!

إن أمتنا بطبيعتها سوف تستعصي على كل حل غير إسلامي، وسوف تبذل المحاولات الدامية لإكراهها على تجرع أدوية لا تريدها، وسوف تتبدد الطاقة -طاقة الشعب والدولة معًا- بين الأخذ والرد!






وفي غضون هذا التناقض الداخلي يكسب الاستعمار العالمي معاركه، ويفرض نفسه.. !

وهنا حقيقتان تحتاجان إلى الشرح: الأولى أن الإسلام صدى الفطرة الإنسانية، وخلاصة ما قال النبيون كلهم لكبح جماح البشر وهداية العالم إلى ربه الواحد.

إن الإسلام لم يجئ لهدم موسى أو عيسى، بل جاء لإحياء ما قالوه وضاع في غمار الماضي.

﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾

(فصلت: ٤٣)

فإذا كان الإسلام رسالة لإصلاح العالم بوحي الله، فكيف يعجز عن إصلاح الأمة التي حملته وبلغته؟

والحقيقة الثانية أن العرب ما دخلوا التاريخ إلا بهذا الدين، وما عرفت لهم حضارة، وتمت لهم قيادة، وتحققت لهم سيادة إلا تحت راية الإسلام، فكيف تكلف أمة بنسيان شخصيتها وحضارتها وتاريخها؟ إن هذا تكليف لها بالانتحار!.

إن العرب عاشوا بلا دين أيام آبائهم عاد وثمود ومدين، فبماذا جُوزوا؟ رجفت بهم الأرض ورجمتهم السماء حتى بادوا وتطهرت منهم الدنيا.





ثم اختار الله محمدًا وقومه لإقامة حكم صالح مصلح.. أساسه القرآن العربي، ومنهج محمد الهادي الملهم، وقال الله سبحانه للإنسان الذي ناط به إصلاح الأرض:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾

(الرعد: ٣٧)

فكيف يكلِّف أحدٌ أتباعَ محمدٍ بتركِ ما لديهم من علم، واتباعِ الأهواء الراشحة من شرق أو غرب تحمل الشر والشرر؟

إن العرب لا يصلحون إلا بالإسلام وحده! هو الذي أذهب جاهليتهم وأخرجهم من الظلمات إلى النور، والمرءُ قد يعرض له ذهول فيكبو، ثم يفيق فيبصر الطريق كما قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾

(الأعراف: ٢٠١)

وكذلك العرب قد يفقدون رشدهم حينًا ويفسدهم الترف والبطر، ثم تصحو ضمائرهم فيتوبون، أو تظل قلوبهم قاسية حتى تنهال عليهم سياط الغزو الخارجي، وتجوس الأعداء





خلال ديارهم، وعندئذ يكويهم الندم ويسارعون بالعودة إلى الله فيقبلهم ويرد لهم الكرَّة على أعدائهم.

واليوم نريد أن ننفض تراب الهزيمة عنا وأن نستأنف مسيرتنا كما كُنَّا.. أعني كما كان سلفنا الأوائل الكبار.

لا بد لذلك من عناصر معينة لا يصنعها إلا الإسلام.

نريد العاملين الذين يرقبون الله في الخلوات، فلا يكسلون عن واجب، ولا يخونون في أمانة، ولا تمتد أيديهم إلى رشوة، ولا يبحثون عما لهم ويتجاهلون ما عليهم.

نريد أساتذةً وطلابًا يسعدون بالمعرفة، ويلتذون بالبحث ويحترمون الكتاب، ويرون الدراسة عبادة، والسهر في التحصيل تهجدًا، ونفع الأمة بأي نوع من العلوم قربة إلى الله.

نريد زُرَّاعًا وصناعًا وتجارًا ينمون اقتصاد أمتهم كما ينمون ثرواتهم، ويدركون أن غِنى الأمة يجعلها قادرة على صون شرفها وحفظ حقوقها وأن الجهاد المالي صنو الجهاد النفسي.

نريد ناسًا يحافظون على المال العام ويشعرون بحق الله فيه، وأن الأخذ منه دون وجه حق غلولٌ

﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (آل عمران: ١٦١)

إن الإسلام وحده هو صانع هذه العناصر التي لا تتم لنا حياة إلا بها، والأمر كما قال الله:





﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾

(الرعد: ١١)

ربما استطاعت أمم أخرى أن تعيش قصيرًا أو طويلًا وفق فلسفات مادية أو خلقية لا صلة لها بالسماء! لكن أمتنا تحول مزاجها وكيانها إلى جهاز فريد لا يدور فيه إلا مفتاح واحد هو الإِسلام، وستذهب جميع المحاولات الأخرى سُدى، لا محالة.

ثم مَن مِن أهل الملل والنحل ترك دينه؟ لقد أقبل اليهود في موكب تظله صحائف التوراة والتلمود، ويتقدمه صخب من مزامير آل داود، ورأى الناس بين القطبين الشمالي والجنوبي هذا الولاء الديني العاصف فما أنكروا له صيحة، مع أنها صيحات جزارين، وديست مدننا وقرانا فما رُثي لنا أحد!!

فهل كل ولاء مقبول إلا الولاء للإِسلام؟ وهل كل حل حسن إلا الحل الإِسلامي؟

إن الحل الإِسلامي لا يحتاج إلى عبقرية في تصوره وتصويره؛ لأنه سهل المأخذ من مصادر الإِسلام المعصومة، والواقع أن العوائق دون تحكيم الإِسلام خلقية لا علمية، وأن الحل الإِسلامي يعرفه أهل الذكر.



إن (المراكسة) في الصين وروسيا شكوا من تحكم الفرد، ومع أن نظمهم بطبيعتها استبدادية، فقد قرروا أن تدور شئونهم في وسط جماعي، يتم فيه تبادل الآراء والبحث عن الصواب.. وأسرة الدول الأوروبية تأبى أن ينتسب إليها إلا الحكام (الديمقراطيون).

إن الإسلام غريب في هذا الجو الآسن الكريه، والحل الإسلامي لا يؤخذ من أفواه الجهال والكذبة.

***





٢٦- ماذا صنع الإسلام لحفظ العقل والنفس والمال..؟

ألف الناس أن تكون العبادات أقرب إلى شئون الغيب عنها إلى دائرة المنطق، لكني أرى غير هذا، فأنا أنادَى إلى الصلاة لا بدقات طبل ولا بزمارات إنذار، وإنما صوت يشدني من عقلي..!

وعندما أنصرف من صلاتي لا أُجزَى إلا بما عقلت منها!

والدين الذي اعتنقته قام على معجزة عقلية، تعرِّفني أن الله واحد في الأرض والسماء؛ لأنه

﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾

(الأنبياء: ٢٢)

وفي القرآن مئات الآيات التي تتحدث عن العقل ووظائفه والأساليب الصحيحة لاستدلاله، وبُعده عن الأوهام والظنون!

وقد أحصيتُ في مقالٍ لي ستَّ عشرة آيةً تنوِّه بأولي الألباب، وترى أنهم هم الناس حقًا! وهل الإنسان إلا عقله؟ ما أصدق قول المتنبي:

لولا العقول لكان أدنى ضيغم
أدنى إلى شرفٍ من الإنسان!!





ومن أجل ذلك يرى الإسلام ضرورة صقل العقل وتوسيع آفاقه وزيادة إشراقه بأنواع العلوم والتجارب. إن الأعمار العقلية للناس تنقص أو تزيد وفق ما يفيدون من تجربة ويتلقون من تعليم.

والحق أن الأمم تتقدم أو تتأخر بمقدار أنصبتها من العلم، وقدرتها على تحويله إلى حضارة مثمرة.. والعقل الصحيح هو الذي يقرأ آيات الله في الكون كما يقرؤها في المصحف، أما التخلف العقلي فستارة تسدل على البصائر والعيون فلا تكشف سرًا ولا تدعم حقًا:

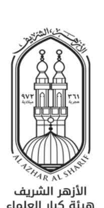
﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾

(الحج: ٤٦)

إن الأمم المتخلفة عقليًا كالأطفال الذين لم يبلغوا الحلم يوضعون في وصاية الكبار حتى ينضجوا، وربما كرهت الأمم المتخلفة هذه المنزلة المهينة! بيد أن سنن الله الكونية تفرض نفسها طوعًا أو كرهًا.

وقد رأيت عابدين، في أفكارهم -لا في قاماتهم- قِصَرٌ، فشعرت بخيبة الأمل؛ لأن هؤلاء العابدين كانوا بلاءً على دينهم، وربما ضروه من حيث أرادوا نفعه؛ لأنهم كالدبة التي





قتلت صاحبها..!

يصقل العقل خلال مراحل الدراسة المتتابعة، ويصقل العقل بالحفاظ على سلامة الحواس، وعافية البدن، ويحفظ بازدراء المسكرات والمخدرات والمفتِّرات التي تنال من وعي المرء وكرامته، ويحفظ قبل ذلك وبعده باستلهام الرشد واستمداد النور منه سبحانه!!

وقد وردت في ذلك كله توجيهات من الكتاب والسنة يطول سردها..

وننتقل من صون العقل إلى صون النفس. إن احترام الإنسانية كلها يبدو في احترام فرد واحد، قال -تعالي-:

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة: ٣٢)

وجاء الإسلام فجعل النفس الإنسانية أقدس من الكعبة المشرفة ومن الأشهر الحرم، قال -عليه الصلاة والسلام-: «ألا وإن الله حرَّم عليكم دماءكم وأموالهم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم، قال اللهم فاشهد -ثلاثًا-، ويلكم لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض» (البخاري بنحوه)



ونظر عبد الله بن عمر إلى الكعبة وقال: «ما أطيبكِ وأطيب ريحَكِ! وما أعظمكِ وأعظم حرمتكِ! والمؤمن أعظم حرمة عند الله منكِ، حرمةُ دمه وماله وعرضه!».

ومقتضى الإيمان ألَّا يكون المؤمن مصدر إفزاع أو ترويع لغيره، ومن جوامع الكلم لرسول الله ﷺ: «الإيمان قيد الفتك، لا يفتك مؤمن»(أبو داود) يعني كما تربط الأغلال يدي الرجل فلا يقدر على عمل شيء، يقيد الإيمان يدي المؤمن فلا يعتدي على نفس، المؤمن أشرف من أن يفتك بأحد!

وفي الحديث كذلك: «قتل المؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا»(سنن النسائي) «لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا في دم مؤمن لكبَّهم الله في النار»(الطبراني في المعجم الأوسط بألفاظ متقاربة).

ويرى الإسلام من المحافظة على الحياة أن يعتني المرء بصحته، ويستكمل أسباب عافيته، ويهتم بحواسه، وأعضائه وسائر بدنه، فإن البدن القدير على أداء الواجبات الناهض بشتى الأعباء؛ من أجلِّ النعم!

وقد كان من أدعية النبي ﷺ: «اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعلها الوارث منَّا»(الترمذي بنحوه) أي استبقها ما دامت الأرواح في الأجساد حتى إذا



متنا خلفناها في أبداننا فورثتنا، بدل أن نرثها ونحن على ظهر الدنيا.

ومن المحافظة على الحياة توقِّي الأمـراض، وتناول الأدوية، وقد رفض عمر السفرَ إلى أرض موبوءة بالطاعون! قيل له: تفرُّ من قدر الله؟ قال: أفر من قدر الله إلى قدر الله!

وقد أصاب أميرُ المؤمنين السُّنَّةَ، وأخذ كلمتَه أحدُ العارفين فولَّد منها هذه الحكمة: «الرجل كل الرجل من يغلب قدر الله بقدر الله».

إن الله يمهد للإنسان السبيل، وعليه بعدئذ أن يقدم لا أن يحجم، وهذا معنى قول الله في ذي القرنين:

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا﴾

(الكهف: ٨٤)

إن النفس شيء غال، وقد كرمها الإسـلام فلم يُهِنْها، وصانها فلم يضعها حتى تؤدي في الحياة رسالتها.

ويجيء بعد النفس المال، وهو قوام الحياة الشخصية والعامة، فما من أحد يستغني عن المال ليطعم ويلبس ويقوت عياله، ويصون مروءته، وما من أمة تستغني عن المال لتحمي كيانها وتدبر مصالحها، وتستبقي ذاتها؛ ولذلك أمرنا بتأثيله وتنميته، ونهينا عن جعله بين أيدي السفهاء، فلا يحسنوا التصرف فيه ولا الإفادة منه، قال تعالى:





﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا ﴾

(النساء: ٥)

ونظرًا لما للمال من آثار خاصة وعامة طلب الإسلامُ من صاحبه أن يرد عنه عدوان الغاصبين! ولو بذل دونه دمه!! روى النسائي عن مخارق بن سليم الشيباني أحد الصحابة قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، الرجل يأتيني ليأخذ مالي؟ قال: ذكِّرْه بالله! قال: فإن لم يذكر! قال: فاستعن عليه بمن حولك من المسلمين! قال: فإن لم يكن حولي أحد من المسلمين؟ قال: فاستعن عليه بالسلطان! قال: فإن نأى السلطان عني؟ قال: قاتلْ دون مالك حتى تكون من شهداء الآخرة، أو تمنع مالك، تحميه. (سنن الترمذي)

وقد روى مسلم في صحيحه حديثًا يؤكد هذا المعنى، ويحكم بالشهادة لمن قُتل دون ماله!!

وإنما ذكرنا ذلك ليعرف المسلمون قيمة المال، وضرورة حفظه والذود عنه! تُرى أيوصي الشارع بهذه الاستماتة في شيء تافه؟ كلا كلا.. إنه لولا خطورة المال في الحياة الخاصة والعامة ما فُرض القتال دونه.

ومعنى إيجاد المال وتحصينه إيجاد منابعه وتفجيرها، وهل منابع المال إلا الضرب في الأرض، واستغلال ظاهرها، واستخراج باطنها، واستثارة البر والبحر ليجودا بخيرات الله المودعة فيهما؟





والحق أن المال سلاح رهيب، والسلاح لا يحمد أو يعاب لذاته! ولكن يحمد في يد الشجاع المدافع عن حقوقه، ويذم في يد الظلوم المعتدي على غيره!! إنه وسيلة إلى الجنة أو إلى النار، بطريقة استخدامه:

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴾

(الليل: ٥ - ١١)

وقد نظر بعض الجُهَّال إلى المال في أيـدي الأشـرار، وكرهوه؛ لأنهم يستعينون به على الفجور والفساد، ثم شرعوا ينظمون قصائد طويلة في هجاء المال، وحسن التخلي عنه! حتى وهم العوام أن المال شر في كل يد، وأن البعد عنه غنيمة!!

ومعني البعد عنه البعد عن مصادر كسبه، وأسباب اقتنائه، وشاع هذا الفكر الغوغائي بين الجماهير، فإذا المسلمون من بضعة قرون لا يحسنون استخراج معدن من الأرض، ولا إجادة صناعة من صناعات السلام أو الحرب!

وإذا هم يحسبون الصعلكة تقوى، والافتقار في الدنيا هو الاغتناء في الآخرة، وسجلوا في بعض كتب السنة والتصوف أن الفقير الصابر أفضل من الغني الشاكر!!



ونشأ عن هذه الجهالات السائدة في مصادر الثقافة الدينية انهيار شامل للعالم الإِسلامي؛ لأن مواهبه الدينية والمدنية تبلدت وفسدت، حتى الأقطار التي رُزقت سعة في ثروتها تيسر لها ذلك من جهد الأجانب في تحصيل خيراتها واستخراج كنوزها!!

إن العقل الإِسلامي تحيط به غشاوات سميكة، ولا بد من تمزيق هذه الغشاوات إن أردنا الحياة، ولا بد من مطاردة الغوغاء الذين فرضوا أنفسهم على الثقافة الدينية، وهم لا يصلحون لا لدنيا ولا لدين.

***





٢٧- ما دور الإسلام في ترشيد الضمير الإنساني؟

نظرة الإِسلام الأولى إلى القلب الإِنساني -أو الضمير كما يقول علماء الأخلاق- فإِن سلامة هذا القلب من العلل، وثبات وجهته إلى الخير، تعني الكثير من توفيق الله ورضوانه، قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم. التقوى هاهنا، التقوى هاهنا، ويشير إلى صدره».

نعم، فالصدر المنشرح بالحق، المستقر على النهج يؤتمن على الدقيق والجليل، ويضع طابعه الطهور على كل شيء، وتحفه بركات الله؛ لأن صلته به قائمة دائمة.

ونحب أن نسوق أمثلة تبين كيف يكون القلب سليمًا؟ أو كيف يكون الضمير نقيًا؟

المرء في طفولته ويفاعته قد يحب الظهور، ويسرُّه سماع الثناء عليه، وقد يبذل جهودًا شاقة في هذه السبيل. إن الرياء ليس مستغربًا على الطبيعة البشرية، فإِرضاء الناس هدف حقيقي في المراحل الأولى من العمر، ثم يكبر المرء وتسمو نظرته ويتجه إلى الله. إن المرائي لا يرى إلا الناس، فهو يعمل لهم، أمَّا المخلص فهو يرى رب الناس؛ ولذلك يعمل له.

ويتعهد الدين هذا الجانب، فهو يوصي بتمحيض العمل







لله؛ لأن الإنسان إذا أشرك الناسَ مع الله في طلب الرضا رفض اللهُ عمله!

إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا له وحده، ومن ثم ترى المؤمن حقًا يجيد عمله ويؤدي واجبه، سواء رآه الناس أم لم يروه، وسواء أثنى عليه رؤساؤه أم ضاقوا به، إنه يحسن الصنيع على أية حال وفي أي وضع.

والإنسان بطبيعته يحب أن يكافأ على عمله ماديًا أو أدبيًا، وربما ترك العمل إذا لم يجد له جزاءً عاجلًا، وقد يتراخى فيه أو لا يكترث بإجادته إذا كان الجزاء قليلًا أو مؤجلًا.. لكنه إذا صدق يقينه أحسن أداء واجبه! وادخر ثوابه عند ربه، وعد ما يقبضه في اليوم الآخر أضمن وأبقى..!

عمل الضمير هنا تثبيت المرء على الوفاء بما عليه ولو غمطه الناس، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال للأنصار: إنكم ستجدون أثرة بعدي! قالوا: فما تأمرنا؟ قال: «أدوا الذي عليكم، وسلوا الله الذي لكم!!».(الترمذي بألفاظ متقاربة)

الواجب يؤدَّى على وجهه الكامل، وحسابي على الله والأمر له..!!

إن الانبعاث إلى العطاء يجب أن يكون بدوافع ذاتية، غايتها استرضاء الله وإن جحد الخلق:





﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾

(سورة الليل : ١٨ - ٢١)

قال المؤرخون : لاحظَ صلاحُ الدين وهو يقاتل الصليبيين أن النار اشتعلت مرتين في معسكرات الأعداء مخلفة وراءها الدمارَ والقلق ! وبينما هو يرقب جهة العدو لاحظَ أن النار بدأت تشتعل ، ورمق الفاعلَ بعدما بدأ الحريق وهو يتحيز إلى جند المسلمين ، فأمر فجيء به ، فلمَّا مثل بين يديه قال له : ما اسمك ؟ قال الرجل : يعلمه الله ! قال له صلاح الدين مطَمْئنًا : إني أريد مكافأتك ! قال الرجل : لو أردتُ المالَ ما جئتُ هنا ، وانصرف لشأنه ! !

هذا جندي باسل حضر الوغى ليقاتل في سبيل ربه ، واكتفى وهو يناضل العدو بنظر الله إليه ، فلما استدعاه السلطان كره أن ينال على جراءته ثمنًا . . حسبه ما عند الله ! ![1]

والحق أن انتصار المسلمين ، وفتح بيت المقدس ، وكسر حدة الغارة الحاقدة ، وجمع فلول الأمة الممزقة كان من ورائه عدد من ذوي الضمائر الموصولة بالله الراغبة إليه ، قامت بعملها في صمت وعزلة وعفة . . !

لعل السلطان نفسه كان يضيء الطريق لهذه القلوب

(١) مما ينبغي التنبيه عليه هنا: أن هذا الجندي الجريء المناضل فعل ما فعل بمعسكرات الأعداء، لأنهم محاربــون، والقاعدة عندنا: أن نحارب من يُحاربنا، ونُسالم من يسالمنا.



الطيبة حين قرر أن يشارك في حمل الأحجار على عاتقه بكرة وأصيلًا، ولو شاء لأصدر الأوامر وراقب المنفذين، إنه أبى إلا أن يسد الثغرات ويشيد الحصون بنفسه مع جيشه!!

ونتدبر عبارة القرآن في وصف هذه الضمائر البارئة من العلل، قال تعالى:

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

(الشعراء: ٨٨، ٨٩)

سليم من أوضار الغش وجنون العظمة ولفت الأنظار! إن الشخص الذي لا يعمل أو لا يجيد عمله إلا ابتغاء ثناء يسمعه، أو مال يأخذه لن يعمل شيئًا طائلًا إذا انقطع الثمن، وابتعد الناس!

ومعنى هذا أن الخير عنده غرض عابر لا باعث أصيل، إن قلبه في الحقيقة ناضب من حب الخير والاندفاع الذاتي إليه، إنه قلب غير سليم.

وربما خامرت القلبَ تطلعاتُ دنيا إلى مالٍ أو جاهٍ، بيد أن الإيمان يطاردها ويبقى الضمير متشبثًا بربه مؤثرًا له، وهذا معنى قوله تعالى

﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾

(ق: ٣٣، ٣٤)

إنه ليس غريبًا على النفس أن تحب المال والجاه، بيد أن






هذه المحبة يجب أن تنهزم أمام وجه الله وارتقاب جُداه ![١]

ولـو نقبنا عن أسباب الـزلازل التي تهز كيان الأمم لوجدناها تلك الضمائر الميتة، تلك القلوب التي تيبست، فهي لا ترشح بنبل ولا تهش لفضيلة ولا تشمئز من قبيح.

وقد ذكرت السنةُ الشريفةُ أمثلةً للضمير الحي عندما يتغلب على المغريات ويهزم الوساوس ويسبح بقوةٍ ضد التيار وينجو!!

فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يحبهم الله، وثلاثة يبغضهم الله.

فأما الثلاثة الذين يحبهم: فرجل أتى قومًا فسألهم بالله، ولم يسألهم بقرابة بينه وبينهم، فمنعوه فتخلف رجل بأعقابهم، فأعطاه سرًا، لا يعلم بعطيته إلا الله والذي أعطاه.

وقوم ساروا ليلتهم حتى إذا كان النوم أحب إليهم مما يعدل به فنزلوا فقام رجل يتملقني ويتلو آياتي[٢].

ورجل كان في سرية فلقي العدوَّ، فانهزموا، فأقبل بصدره حتى يُقتَل أو يفتح له.

وأما الثلاثة الذين يبغضهم الله فالشيخ الزاني، والفقير المحتال، والغني الظلوم.(الترمذي)

---

(١) الجدوى والجداة العطاء والنفع. (المجلة)

(٢) تدور مادة (ملـق) حول التجرد واللين؛ فالتملق في الحديث أو الدعاء هو اللين والتضرع، والإملاق ذهاب المال. قال تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ﴾ (الأنعام:١٥١) (المجلة)





وظاهر أن الثلاثة الآخرين ماتت قلوبهم، فاستمرءوا الرذائل مع ضعف الأسباب التي تدفع إليها.

ومن صور الضمائر الحية: ما ذكرته أحاديث أخرى، عن الرجل يقدر على الفاحشة، ولكنه يدوس مغرياتها، ويستبقي نفسه طاهرًا، وصلته بالله زاكية.

وصورة هذا الرجل الذي استأجر عاملًا عنده، فأدَّى واجبه ثم عرض له ما صرفه قبل أن يأخذ أجره، وبعد سنين طوال رجع العامل يطلب حقه الذي تركه من زمن بعيد!

كان رب المال قد أدار الأجرةَ في عمله فنمتْ حتى أمست ثروة! فلما جاء العامل أعطاه الأصل والنماء، والعامل مدهوش!

إن الإيمان يضع ضوابط صلبة للسلوك، ويجعل من القلب ديدبانًا صاحيًا يحرس الحقوق والواجبات، فلا حيف ولا فوضى..!

وبعض الأنظمة تجعل من سلطان الدولة شبحًا رهيبًا يحمل الناس حملًا على العمل، والإتقان! فهل تم ذلك؟ لا، لأنه ليس في مقدور نظام ما أن يضع شُرطيًا مع كل عامل في الأرض أو في المصنع لينشط، ومع كل مقاول حتى لا يغش، ومع كل طبيب حتى لا يتهاون، ومع كل تاجر حتى لا يحتكر، ومع كل رئيس حتى لا يستبد ويطغى.

وإذا خان الشرطي فهل نجيء له بشرطي آخر؟ قد يقال:





إن رفع المستوى الثقافي وتبصير الكبار والصغار بما ينبغي وما لا ينبغي يمكن أن يمنع هذه المحذورات.

والواقع أن الجرائم الكبرى لم يقترفها إلا مجرمون على حظ كبير من المعرفة، وأن النضج العقلي لا يستلزم الطيبة والإخلاص والشرف، وكم من أذكياء أساءوا إلى أنفسهم وأممهم..!

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

(الجاثية: ٢٣)

إن القلب النقي، الغيور على الحق، الحريص على الشرف، القاهر للأثرة، المحب للناس لا يصنعه إلا إيمان وثيق، وتعلق بالله وحده.

والواقع أن حديث القرآن عن الله سبحانه وتعالى وعن تاريخ الماضين الطويل، وعن البعث والحساب والثواب والعقاب، وما شرعه الله سبحانه من عبادات كثيرة؛ إن ذلك كله عناصر لضمان سلامة القلب، واتجاهه الثابت إلى الحق والخير.






٢٨- ما موقف الإسلام من العنصرية السائدة في بعض الحضارات؟

ظهر الزعيم الألماني (هتلر) يزعم أن الدم الآري أرقى من غيره، وأن الشعب الألماني بطبيعته يرجح غيره من الشعوب السامية -يعني اليهود والعرب وأشباههم- وتحول هذا الزعم إلى عقيدة تساند مشاعر الكبرياء ونزعة السيادة عند الألمان ومن على مستواهم.

وهذا كلام خرافي لا وزن له! وإن كان راسبًا لا في نفوس الألمان وحدهم، بل في نفوس الأوربيين وأفراد الجنس الأبيض عمومًا!

إن بني آدم من ناحية الخلقة يستوون في أنهم نفخة من روح الله الأعلى حلت في إهاب من تراب هذه الأرض، فالبشر كلهم ينميهم أصل واحد، ويجمعهم نسب مشترك. قال تعالى يشرح تلك الحقائق:

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾

(السجدة: ٧ - ٩)

لا فروق بين جلد أبيض أو أسود أو أصفر أو أحمر، إن هذه





الألوان المختلفة تشابه ما تراه العيون من اختلاف في ألوان الأزهار والورد، ولا دلالة على عراقة أو تفاهة.

بيد أن كثيرًا من الناس يسرهم أن يختلقوا -من عند أنفسهم- هذه الفروق، وأن يقيموا حولها عصبيات، وأن يجعلوا لها وزنًا خاصًا في التقديم والتأخير، والقبول والرفض!

وقد رأيتُ البعضَ يتشبث بهذه الأوهام لأنها رجَّحتْ كفته دون جهد! ومنحته شرفًا جعله -دون حركة- يسبق الناشطين! إنه لشيء ظريف أن يُحسَب المرء سيدًا لأنه تكون في بطن معين، ونشأ الناس من ماء مهين، أما هو فمن ماء شريف.

إننا -مع احترامنا لقوانين الوراثة- نقرر أن الوراثة لا تنشئ عظمةً ولا تُكسِب نجاحًا، فهناك أنبياء من أصلاب كافرة، وهناك فجار من أصلاب أنبياء، وقد كان أبو الطيب شاعرًا مفلقًا من أبٍ لا يعرف شعرًا ولا نثرًا، وكان أبو العلاء فيلسوفًا متشائمًا من أبٍ لا يدري شيئًا من الفلسفة.

ثم إن روافد الوراثة غامضة المنبع والكنه في أبناء الجيل الواحد، فكيف إذا تكاثرت الأجيال؟ ونحن نعرف النكتة المروية عن امرأة جميلة أحبت عبقريًا دميمًا وعرضت عليه الزواج لينجبا ابنًا يرث جمالها وذكاءه! فقال لها الرجل: أخشى أن يرث غباوتكِ ودمامتي!!

إن القول بأن جنسًا ما ذكيٌّ بأصل الخلقة، وجنسًا آخر





غبيٌّ بأصل الخلقة قول فيه ادعاء ظاهر، إن ظروف البيئة هي التي تصنع الأعاجيب، وهي التي تنمي المواهب أو تقتلها، بل هي التي تحيي الفطرة أو تميتها.

والجنس الأبيض الذي يعمر غرب أوروبا وشمالها، والذي يفرض وصايته على العالم كله، كان أيامًا طوالًا يشتهر بالغباوة والانحطاط، وقد نقلنا في كتابنا (مع الله) كلام المستشرق (فيلب حتى) عن تأخر الأوروبيين الحضاري وتفوق عرب الأندلس عليهم «...في الوقت الذي كانت فيه جامعة (أكسفورد) ترى الاستحمام عادة وثنية، كانت الأجيال من علماء قرطبة تتمتع بالاستحمام في مؤسسات فاخرة...» ويدلنا على موقف العرب حيال برابرة الشمال -هكذا كان آباؤنا يسمون سكان أوروبا- وفكرتهم عنهم ما ورد في كلام عالم طليطلة (صاعد)، القاضي المتوفى سنة ١٠٧٠م فقد كتب عنهم: إن إفراط بُعد الشمس عن مسامة رءوسهم برَّد هواءهم وكشف وجوههم فصارت لذلك أمزجتهم باردة وأخلاطهم فجة! فعظمت أبدانهم وابيضت ألوانهم وانسدلت شعورهم وانعدمت (فيهم) دقة الأفهام وثقوب الخواطر، وغلب عليهم الجهل والبلادة، وفشا فيهم العمى والغباوة!!

أرأيت هذا الوصف؟ إنه لأهل أوروبا الذين يقودون العالم الآن، وليس للهنود أو الزنوج أو العرب.. أو بقية العالم الثالث!!





والعالم اليوم ينظر إلى هزائم العرب أمام اليهود، ويبتسم ساخرًا... ! وقد كان آباء أولئك المهزومين يحتقرون الجبن اليهودي ويبرءون منه، ويقولون لنبيهم في أول قتال له مع الوثنية: لا نقول لك ما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون! بل اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، إن خضت بنا هذا البحر خضناه معك، ما يتخلف منا أحد!!

إن الإسلام بيَّن أن الأفراد والأجناس يصنعون يومهم وغدهم بأنفسهم، وهم في سباق مفتوح يتقدم فيه من شاء ويتأخر فيه من شاء لا مدخل للون أو عرق:

﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾

(المدثر: ٣٥ - ٣٧)

فقد يسبق الأسود في الدنيا والآخرة، أو يقع العكس! وقد ترجح كفة رجل من سواد الناس، وتطيش كفة آخر من أبناء الرسل، أو العكس:

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾

(الأعراف: ٨ - ٩)

وجاء في السنة أن النبي ﷺ نبه قومه: «لا يأتيني الناس



بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم» وقال: «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»(أبو داود والترمذي) وهذا مصداق الآية الشريفة

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾

(المؤمنون: ١٠١)

وقال تعالى:

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

(الأحقاف: ١٩)

ومع كثرة ما نبه الإسلام إلى مبدأ

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾

(الحجرات: ١٣)

لوحظ أن العرب يغالون مغالاة منكرة بالأنساب والحرف، ويجعلونها محور تقدير جائر وعصبيات عمياء.

الزراعة مهنة تافهة، وكلمة فلاح لامرئٍ نازل المرتبة، وقد كان الفرزدق يهجو جريرًا بأن أباه حداد! أمَّا هو فإن الذي سمك السماء بنى له بيتًا دعائمه أعز وأرفع! بم؟ بغير شيء!

وفرضت تقاليد البدو نفسها على المجتمع العربي، بل على جانب من الفقه الإسلامي، فإذا عدد كبير من رجال الفقه يرون أن الهاشمية لا يكافئها عربي عادي، وأن العربية





لا يكافئها أعجمي، وحكم القضاء الشرعي بتطليق فتاة من أسرة شريفة النسب تزوجت بالشيخ علي يوسف محرر صحيفة (المؤيد) المشهورة.

أما حديث الرسول ﷺ: «إذا أتاكم من ترضون دينه ومروءته فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير»(رواه الترمذي وابن ماجه بنحوه) فقد وضع على الرف!

وكما تسللت هذه التقاليد إلى ميدان الفقه تسللت إلى ميدان الحكم والسياسة، فكانت عصبيات القبائل قديمًا وعصبيات الأسر حديثًا من وراء طلب الرياسة وبسط النفوذ.

وعندما يُبحَث سبب فساد المجتمع الإسلامي وانهيار الحضارة الإسلامية عمومًا، فستكون هذه الجاهليات من أبرز العلل.

وإلى يوم الناس هذا لا تزال الكفاءة الشخصية تؤخر أمام مكانة العائلة وقيمة النسب! ذلك في وقت يشيع في أرجاء العالم تنافس لا حدود له في البحث العلمي والإنتاج الغزير، وتجويد السلع، وكشف المجهول، ومراقبة الخصوم، وكسب الأصدقاء، إنه تنافس ترتبط به مصائر أمم ومستقبل رسالات! تُرى ما موقفنا؟

جاء في السنَّة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة أمر الله مناديًا، ألا إني جعلت نسبًا، وجعلتم نسبًا؛ جعلت أكرمكم عند الله أتقاكم فأبيتم إلا أن تقولوا:





فلان بن فلان خيرٌ من فلان بن فلان ! فاليوم أرفع نسبي وأضع نسبكم، أين المتقون ؟»(المعجم الصغير للطبراني)

وعن جابرٍ : خاطبَنا رسول الله ﷺ في أوسط أيام التشريق خطبة الوداع فقال : «يا أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد ! ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى. إن أكرمكم عند الله أ تقاكم، ألا هل بلغتُ ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ! قال : فليبلغ الشاهدُ الغائبَ. . . » !

وروى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال : «لينتهين أقوام عن الفخر بآبائهم الذين ماتوا، إنما هم فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعل الذي يدحرج النتن بأنفه ! إن الله أذهب عنكم عبية الجاهلية -أي كبرها- وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي أو فاجر شقي، الناس بنو آدم وآدم من تراب. . ! ! ».





٢٩ - ما موقف الإسلام من مظاهر الحضارة الحديثة، السينما والمسرح والموسيقى والفنون جميعها، كالرسم والنحت والتصوير؟

الحضارة الحديثة نتاج تقدم علمي باهر، وصل إليه الإنسان بعد قرون من البحث المضني والتجارب الغالية! ولم يكن عجبًا أن يستغل الإنسان كشوفه لأسرار الكون وقواه الخفية في ترقية نفسه وترقية معايشه، بل إن ذلك أقرب إلى الحكمة من استغلال هذه الكشوف في تدمير الحضارة نفسها وتيسير الانتحار الجماعي على الناس!

وأحسب أن التقدم الصناعي العام وفر للجماهير متعًا ما كان يحصل عليها الملوك الأقدمون! الأطعمة أنعم، والأشربة صنوف، والملابس تفضل الحرير نسجًا ولونًا ورقة، وأدوات النقل أغنت عن الخيل والبغال والحمير، والقيان التي كانت تغني في مقاصير الأمراء انتقل صوتها إلى الأكواخ، ونام على لحنها العمال والفلاحون، والمرء في المشرق يكلم صاحبه في المغرب بثمن ميسور، وربما بلغ الناس من الرفاهة درجة أعلى، وملكوا غدًا أنصبة أكثر..!

ومع هذا كله فالأعصاب مشدودة، والأطماع طاغية، والبكاء على القليل المنشود يفسد السعادة بالكثير الموجود، وتحاسُد الأفراد والأقطار أشعل البغضاء هنا وهناك!





وقيل في وصف العالَم: إن عضلاته أكبر من فكره، ولو أنصفوا لقالوا: إنه عالم يذكر نفسه، وينسى ربه، ويجحد حقه، ويماري في لقائه، ويظن أن هذه الدنيا كلُّ شيء، فلا امتداد لوجودٍ آخر، ولا حياة إلا هنا..!!

وأنا رجل مسلم أحب الحياة وأبتهج بطيباتها! إن الله استضافني في كونه وأطعمني خيره، فمن السفاهة أن أرفض الكرم المبذول، ومن السفاهة كذلك أن أضن بشكر المنعم!

إن الله تبارك اسمه يعطي الفضل ولا يطلب إلا الاعتراف بالجميل، فهل هذا ثمن فادح؟

يبدو أن ناسًا كثيرين يعز عليهم دفع هذا الثمن:

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾

(سبأ: ١٣)

على ذلك الأساس أنظر إلى ما قدمته الحضارات قديمها وحديثها! إنه -كما علمني الإسلام- لي وليس لغيري، أليس يقول الله:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾

(البقرة: ٢٩)

ومن ثم فالأصل في الأشياء الإباحة، ولا تحريم إلا بنص قاطع، والواقع أن نفرًا من سوداويي المزاج أولعوا بالتحريم، ومنهجهم في الحكم على الأشياء يخالف منهج نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام الذي ما خُيِّر بين أمرين إلا اختار





أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس عنه، روى أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم، فإن قومًا شددوا على أنفسهم فشدد عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع والأديرة، رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم» (رواه أبو داود).

وقد أشاعت المدنية الحديثة الراديو والتليفزيونَ وغيرهما من الأجهزة الناقلة للثقافة والملاهي على سواء، ومعروف أن هذه الأجهزة أدوات غير مسئولة عما يصدر عنها، وأن المسئولية تقع على المؤلفين والمغنين والمخرجين، ففي استطاعتهم أن يقدموا النافع ويحجبوا الضار..!

لقد كان من المستطاع أن نتوسل بهذه الأجهزة لإشاعة اللغة السليمة وتذوق الآداب الرفيعة وحماية الأخلاق، ودعم التقاليد الفاضلة، بل كان من الممكن أن ندرب الألوف على إتقان حِرَف نحن محتاجون إليها، وأن نرفع مستوى الأداء لأشغال كثيرة، فإن البطالة السافرة والمقنّعة تفتك لدينا بأعمار الناس.

كان من الممكن أن نحارب عادات ضارة موروثة أو مستوردة انتشرت بيننا وأوقفت مسيرتنا، إن وسائل الإعلام لو أحسنَّا استغلالها تصنع الكثير، ولكن ذلك لا تستطيعه إلا أمة تحس أن لها رسالة في الحياة، أما الأمة الذَّنَب فقد سقط عنها التكليف؛ لأن غيرها يشدها.

قد يفهم من ذلك أني أحارب الغناء والموسيقى والترويح





عن النفس.. لا، ولكني ألحظ أن الأمة العربية والإسلامية تريد أن تعمل قليلًا وتغني كثيرًا. والاستجمام حق المُرهَقين لا حق القاعدين!

أما الغناء فكلام، حسنه حسن، وقبيحه قبيح، ومن غنَّى أو استمع إلى غناء شريف المعنى طيب اللحن فلا حرج عليه! وما نحارب إلا غناءً هابط المعنى واللحن.

لم يَرِدْ حديث صحيح في تحريم الغناء على الإطلاق، وقد احتج البعض بقوله تعالى:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾

(لقمان: ٦، ٧)

ولعمرى أن من يشتري جد الحديث أو لهوه للأسباب المذكورة في الآية جدير بسوء العقاب، أمَّا من يريح أعصابه المكدودة بصوت حسن ولحن جميل فلا علاقة للآية به، وكما يقول ابن حزم: لو اشترى مصحفًا للإضلال فهو مجرم.

ويبدو أن اقتران الغناء ببعض المحرمات من خمر وفحش. وما يشاع عن البيئة الفنية من تحلل، هو الذي جعل عددًا من العلماء يحرمه، وإلى هذه الجملة من الرذائل يشير حديث البخاري إلى من يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف.. بيد أنه ليس من الضروري أن تجتمع هذه العناصر كلها عند



سماع أغنية.. وعلى أية حال فإذا كان الغناء مقرونًا بتلك المحرمات فهو مرفوض، أما إذا برئ منها فلا شيء فيه.

والموسيقى كالغناء وقد رأيت في السنة أن النبي ﷺ مدح صوت أبي موسى الأشعري -وكان حلوًا، وقد سمعه يتغنى بالقرآن- فقال له: «لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود» !(البخاري ومسلم) ولو كان المزمار آلة رديئة ما قال له ذلك.

وقد سمع رسول الله ﷺ صوت الدف والمزمار دون تحرج، ولا أدري من أين حرم البعضُ الموسيقى، ونفر من سماعها؟

على أن الألحان تختلف في تأثيرها وصداها النفسي، فإذا كان هناك مجال لاعتراضٍ فعلى الأصوات الخنثة والألحان الطرية المائعة.

ونعود إلى ما بدأنا به موضوعنا وهو أن أمتنا بحاجة إلى الكثير من الجد والقليل من اللهو، ولو رزقنا بفنانين ذوي شرف ومقدرة لأمكن تحويل الفنون إلى عوامل للبناء لا للهدم، ولإثارة المشاعر النبيلة لا إهاجة الغرائز الدنيا.

أما الصور فيجب أن نفرق بين نوعين: المجسم الذي يصنعه المثالون الآن لأغراض شتى! والرسوم التي توضع على المسطحات من أوراق وأقمشة وغير ذلك.

والتصوير سواء كان شمسيًا أو قلميًا هو جزء من الطب والأمن والعلوم الكونية والحيوية والتاريخ والشئون






الاجتماعية الكثيرة، والأصل فيه الإباحة لحديث مسلم: «إلا رقمًا في ثوب» ولحديث رزين سئل ابن عباس عن أجرة كتابة المصحف، فقال: «لا بأس إنما هم مصورون، وإنهم إنما يأكلون من عمل أيديهم».(خلق أفعال العباد للبخاري بنحوه)

ولم يقل أحد إن صورة الوجه في المرآة محرمة، ولا يقول أحد إن إثباتها بطريقة أو بأخرى تحول المباح إلى محرم.

ولا يحرم من هذا النوع إلا ما حمل طابعًا دينيًا لعقائد يرفضها الإسلام كصور بوذا، أو إبراهما، أو صلبان النصارى، أو أي شعار ديني يخالف التوحيد.

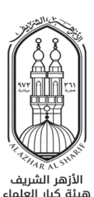
كما يحرم أي تصوير يخل بالآداب، ويحرك الغرائز إلى المعصية.

أما التماثيل المجسمة فإن النصوص الواردة تتظاهر على رفضها، ما لم تكن ألاعيب للصبية أو عرائس هزلية، كحلوى المناسبات المختلفة، فإن أحدًا لا يفكر في توقيرها أو عبادتها.

ولقد رأيت بعيني من يعبدون هذه الأصنام في جنوب آسيا، وأعرف أن هناك من رجال الفتوى من يحرم التصوير كله سواء كان مجسمًا أو كان رسمًا على ورق، وأخشى أن يكون سَوْقُ النصوص مقطوعة عن ملابساتها سببًا في ضياع الدين والدنيا معًا!

ولنضرب مثلًا بالمرويات التي جاءت في قضية البناء!







روى الشيخان عن خباب بن الأرت قال : إن المسلم يؤجر في كل شيء ينفعه إلا في شيء يجعله في هذا التراب !

وروى الترمذي عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : «النفقة كلها في سبيل الله ، إلا البناء فلا خير فيه» !

وأخرج داود عن أنس أيضًا أن رسول الله ﷺ قال : «أما إن كل بناء وبال على صاحبه إلا ما لا بد منه» .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : مرَّ بي رسول الله ﷺ وأنا أطين حائطًا من خص ، فقال : ما هذا يا عبد الله؟ فقلت : حائط أصلحه فقال : «الأمر أيسر من ذلك» وفي رواية : «ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك» ! يعني الموت أو الساعة ! ! والحديث رواه أبو داود وصححه الترمذي ! !

هذه الآثار كلها لو أخذت على ظاهرها ما بنيت مدينة ولا قرية ! ولعاش الناس في أكواخ لا تستر العورات إلا بجهد !

والواقع أنها واردة في المكاثرة والمفاخرة والاستطالة على الناس ! وبناءُ القصور جائز بلا ريبة !

فهل الذين يحرمون التصوير مطلقًا يحرمون بناء القصور؟

إنهم في بعض البلاد لا يزالون يرون الصورة في التليفزيون محرمة ، وأقمار الأجانب تلتقط الصور لنا في أيام السلام والحرب على سواء ، ونحن ندري أو لا ندري .





٣٠- كيف أعلن الإسلام حقوق الإنسان..؟

خلق الله الإنسان ليكرم لا ليهان، ولتسجد له الملائكة لا ليعيش مع الحيوان! ومع أن الإنسان يعاني على الأرض ما يعاني فهو مع بني جنسه إذا صلحوا واستقاموا أفضل عند الله من ملائكة السماء، وقد قال الله سبحانه:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾

(الإسراء: ٧٠)

ولكن المتأمل في تاريخ البشر يجد أن جماهير كثيفة طحنها الذل والضياع! ربما أهزلها الجوع، والدوابُّ تجد ما تأكله! وربما فقدت حقوقها المادية والأدبية وعاشت كسيرة أسيرة وغيرها من الطير والحشرات ينطلق دون قيد!

من الذي أنزل بالبشر هذه الكوارث؟ لم يفعل ذلك مَلَكٌ ولا جنٌّ، لم يفعل ذلك ماءٌ ولا هواءٌ!

إن الذي فعل ذلك بعض البشر، ناس لديهم سلطة أو ثروة استغلوا سلطانهم وغناهم في إيذاء الآخرين والحيف عليهم.

ومضت قافلة البشرية من قديم تتعسف الطريق، وتكابر الوحي، وتعارض الإنصاف، وتدفن الأخلاق، وتفرض الأهواء.. وأخيرًا استطاع نفر من أولي العزم وحماة الحقيقة أن يقلموا الأظافر الحادة، وأن يروضوا الطبائع النهمة، وأن يضعوا دساتير حسنة ترد المظالم وتحمي الضعاف، وتصون





الحقوق في أسلوب مفصل أوحتْ به سلسلة التجارب الطويلة في محاربة الاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي والانحراف الخلقي.

وعندما ننظر إلى المواد التي تضمنتها هذه الدساتير نعرف بدقة ما هي الحقوق التي يطلبها الإنسان والتي لا يزال الكثيرون يشكون فقدها!

إن المادة الأولى في الميثاق العالمي لحقوق الإنسان تنص على أن الناس يولدون أحرارًا، يتساوون في الحقوق والواجبات، وكون الناس يولدون أحرارًا متساوين كلمةٌ نطق بها عمر بن الخطاب ارتجالًا لا إعدادًا ولا تكلفًا، بل انطلاقًا من الفطرة الإسلامية!

ولكن هذه الكلمة ظلت دهرًا نظرية خيالية!! فكم من أناس وُلدوا ولهم حقوق ليست لغيرهم، وكم من أناس ولدوا مثقلين بواجبات ليست على غيرهم، وكم من وظائف تفاوتت الفرص في شغلها، واختير لها من ليس لها بأهل، ولا تسلْ كيف؟ إن القدرة التي يملكها البعض -ولا يدري كيف امتلكها- فعلت مآثم ومناكر لا حصر لها، ومع أن الله -وهو المقتدر الأعلى- لا يظلم أحدًا في الملكوت الذي تفرد بحكمه، وقال: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي فلا تظالموا»(مسلم).

إن حقوق الإنسان ولدت في ديننا مع النطق بكلمة التوحيد، فعندما نؤمن بالله الذي لا يعبد غيره ولا يشرِّع غيرُه





ولا يَحْكُمُ غيرُه، عندئذ تسقط الوثنيات كلها عقائدية كانت أو سياسية أو اجتماعية!!

نعم، إن الإيمان بوحدانية الله وقيامه على خلقه وتدبيره لكل أمر، والإحساس بأنه -وحده- الضار النافع الخافض الرافع المعطي المانع؛ إن ذلك يمنح الإنسان حرية واسعة تجعله لا يبالي بطواغيت الأرض كلها؛ لأنهم - ليسوا إلا عبيدًا لربه.

ونلحظ أن القرآن الكريم كرر قصة فرعون مع موسى بضع عشرة مرة؛ ذلك لأن الفرعنة مرض نفسي شائع، وتأمل قول فرعون لقومه:

﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾

(غافر: ٢٩)

وقوله للسحرة لما آمنوا بعد ما شهدوا معجزة موسى تلقف ما صنعوا:

﴿ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ﴾

(طه: ٧١)

إن ذلك الفرعون السخيف يرى ألَّا رأي إلا رأيه! فهو وحده الذي يصنع القرار! ويرى أن من اعتنق رأيًا قبل أن يستأذنه مخطئ متمرد!! إنه ملك الضمائر والسرائر، والناس عبيد إحساناته..!!





ولكي توقي الإنسانيةُ نفسها شر هذه اللوثة: شددت الدساتير الحديثة في أمر الشورى وإلزام أولي الأمر بها، كما وضعت قيودًا حديدية على التصرف في المال العام ومنع العبث فيه.

وكذلك وضعت قوانين صارمة لحق كل إنسان في محاكمة عادلة، فلا يحبس أو يعتقل أو يؤذى جورًا وطغيانًا، وإنما يبقى إنسانًا مصونًا حتى يُصدِر القضاء النزيه حكمًا عليه فيؤخذ به وحده!

إن الرسول رأى وحشيًا الذي قتل عمه -حمزة أحب الناس إليه- فما استطاع أن يسيء إليه بكلمة بعدما أسلم.

ورأى عمر بن الخطاب رجلًا كان قد قتل أخاه في الجاهلية ثم أسلم، فقال له عمر: والله لا أحبك! قال: أذلك يمنعني حقي يا أمير المؤمنين؟ قال: لا.. قال: لا حرج إذن، إنما يأسى على الحب النساءُ!!

الحق أن سنة الرسول ﷺ وتقاليد الخلافة الراشدة كانت نموذجًا أعلى لاحترام الإنسان والمحافظة على حقوقه، كان النبي يدعو مَنْ له مظلمة عنده أن يقتص منه، ويأخذ حقه! وكان خلفاؤه كذلك، وقد رفض عثمان أن يستنفر أهل المدينة -خصوصًا قبيلته- للدفاع عنه، حقنًا لدماء من استباحوا دمه!

ولو كان في الحكم رجل آخر لأهلك نصف الناس للدفاع عن شخصه!!




في هذه البيئة الحرة تربَّى الرجالُ الذين هدموا القيصرية والكسروية، واستمع التاريخ إلى رجل منهم يقول في أرض فارس: جئنا نخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده! جئنا نخرج الناس من ضيق الأديان إلى سعة الإسلام!

كانوا يدركون أن الوجه الآخر لكلمة التوحيد هو حقوق الإنسان، الإنسان الذي لا ينحني إلا لربه وحده!

من هنا كانت البيئة الحرة المهاد الفذ لتكوين الأمة المسلمة العارفة بربها السيدة في وطنها التي لا يجار عليها ولا يستباح حماها، وقد كره الإسلام الاستضعاف، وعزم على المؤمن أن يكون حميَّ الأنف عزيز الجانب!

فإن ضاقت به أرض فليرحل إلى غيرها، وليبق كما كتب الله له قويًا أبيًا

﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ﴾

(الزمر: ١٠)

على أن الرحيل لا يسوغ أن يكون فرارًا من مقاومة ممكنة، جاء في خطبة لأبي بكر الصديق: «...إنا سمعنا رسول الله ﷺ يقول: إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يده أوشك أن يعمهم الله تعالى بعقاب. أو أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما من قوم يُعمَل فيهم بالمعاصي ثم يقدرون على أن يغيروا فلم يغيروا إلا يوشك أن يعمهم الله بعقاب».



للإِنسان حقوق سياسية تجعله ينقد أي خطأ دون أن يلحقه أي ضرر، وله أن يتولى أي منصب تؤهله له كفايته دون أن يقفه عائق ما . . وأساس ذلك أنه ليس لأحد بعد رسول الله عصمة تعلو به على النقد، وأن المناصب أمانات ينالها الجدير بها، ويبعد عنها من لا يستحقها.

وللإِنسان حقوق مالية تفرضها له الأخوة العامة بين المسلمين، وقد أشرنا من قبل إلى أن المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه.. قال ابن حزم: ومن ترك أخاه يجوع ويعرى وهو قادر على إطعامه وكسوته فقد أسلمه! وذكر ابن الجوزي في سيرة عمر بن الخطاب وقد أصابت الناس أزمة أن عمر قال: «لو لم أجد للناس ما يسعهم إلا أن أدخل على أهل كل بيت عددهم فيقاسمونهم أنصاف بطونهم حتى يأتي الله بالمطر فعلت، فإِنهم لن يهلكوا على أنصاف بطونهم».

وللناس حقوق ثقافية تجعل العلم بينهم مشاعًا، ميسور الأخذ، يستنير به الذكر والأنثى، والغني والفقير، فطلب العلم فريضة كما جاء في السنة الشريفة، وما تنضج ملكات الإِنسان، ويخصب تفكيره وشعوره إلا بأمدادٍ لا تنتهي من المعرفة..!

والمستغرب أن الإِنسان المسلم من بضعة قرون يحيا بعيدًا عن دينه وينبت في غير مغارسه ويحكم بغير شرائعه.



٣١- هل مسئولية المسلم تجاه المجتمع الإسلامي وحده أم تجاه المجتمع البشري كله.. كيف؟

معرفتي بالإسلام تجعل ولائي للناس كلهم جزءًا من ولائي للدين الذي أحببته ! فأنا لا أشعر بانشطارٍ في هذا الولاء الواحد .

وقد سمعت أحد الشيوخ في أثناء الدروس يقول: نحن المسلمين أمة الإجابة، وغيرنا من أهل الأرض أمة الدعوة ! قلت: ما معنى هذا؟ قال: إن محمدًا ﷺ دعا العالمين إلى الله، فنحن استمعنا إلى النداء وأسلمنا وجوهنا لله، وحق فينا قوله تعالى:

﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ (آل عمران: ١٩٣)

فنحن أمة الإجابة ! !

أما غيرنا مدعو مثلنا، ولمَّا يجبْ بعدُ ! لعل النداء لم يصل إليه، أو لعله وصل إليه مشوهًا لا يحرك دواعي القبول، وأيًا ما كان الأمر فهو مدعو !

وعليّ أن أبلغه ما يجهل، وأن أثير فيه دواعي التصديق، لقد عرفت الحق قبله، فآمنت، ولست أولى منه بذلك الخير، وقد يكون خيرًا مني لو عرف ما أعرف، والواجب يفرض عليَّ أن أكون صورة مرغبة لا صورة منفرة، وإلا كنتُ مسئولًا





عن إضلاله، أو حاملًا أوزاره ! !

ومن المحزن أن عددًا من المسلمين شغله الترف العقلي فخان أمانة الدعوة والبلاغ، وأن عددًا من المسلمين شغله المجد السياسي، فما أحسنَ خدمةَ الحق ولا جذبَ الانتباهَ إليه ! ونشأ عن ذلك أن العلاقة بين أمة الإجابة وأمة الدعوة كانت مليئة بالخصام، بل كانت مخضبة بالدم !

قد تقول : أهذا كل ولائك للإنسانية ؟ وأجيب للفور : لا . . لا تنس أني حسن الظن بالفطرة الإنسانية نفسها ؛ لأني مسلم أعلم أن الصفة الأولى لديني أنه دين الفطرة ! إن الناس يولدون عليه ويتجاوبون مع تعاليمه إذا أدركوها . . ويوم تخف قبضة الموروثات الرديئة فإن الجماهير ستكون قريبة مني أو أكون أنا قريبًا منها .

ولو خُلِّي المرء وفكره لاتجه إلى إلـه واحـدٍ، ولشعر بدوافع ذاتية إلى هذا الرب الوحيد، ولو خُلِّي المرء وفكره لآثر الزواج على العهر، والصحو على السكر، والإخاء على الأثرة، والنصيحة على الغش !

إنني حسن الظن بالفطرة البشرية، واعتقادي أنها كالثمر الذي ينبت جميل الرواء شهي الطعم، بيد أن النبات قد تعدو عليه أمراض تشوه لونه ومذاقه. إن هذه الأمراض علل طارئة، وقد تعارف الزراع على مقاومتها كي يحموا محاصيلهم، لكن الأجيال الناشئة بيننا لا تجد الحماية الكافية، ومن ثم قد تلتهمها الأوبئة الخلقية والاجتماعية والسياسية، فيشب



الصغار مائلين زائفين !

وماذا يفعل أولئك الصغار إذا سمعوا منذ نعومة أظفارهم أنه لا إله، والحياة مادة؟ أو سمعوا أن الآلهة شِركةٌ مقرها جبل أولمب أو صحراء الجزيرة أو فوق السحاب؟ إنهم يكبرون زائغين.

أتراني أدافع عن ذلك الانحراف؟ كلا، وإنما أذكر الواقع المجرد! والذي أعلمه أن الله زود الفطرة بخصائص تملك بها حق الاعتراض على الباطل الذي يعرض أو يفرض عليها، وأن هذه الخصائص من القوة حيث يعد إهمالها تقصيرًا سيئًا وأساسًا لمساءلة عادلة يوم الحساب، قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٢ - ١٧٤)

هذا الحوار ناضح بأن الخصائص الذاتية للفطرة الإنسانية قادرة على المقاومة والرفض، يجب أن يرفض العقلُ الخرافةَ ويتشبث بالحقيقة، يجب أن يرفض الضميرُ البشريُّ الإثمَ ويتشبث بالبر والطيبة.

وإذا حدث أن خفت صوت الفطرة، جاءت نجدات من الخارج لمعاونته كي يؤدي وظيفته، ويبقى الإنسان إنسانًا،



يعرف ربه ويؤثر دربه!!

وإذا كان الوحي الإلهي غير كاف في إيقاظ الفطرة وإعادة التائه إلى رشده، أحاطت بالأفراد والجماعات آلام تكسر الغرور وترقق الحجب وتحمل البشرية على الخضوع لمولاها ومناشدته الرحمة

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ (الأعراف: ٩٤)

ومع ذلك بالفطرة وحدها لا تخطئ في كل شيء! إنها تخطئ وتصيب، وتجور وتستقيم! ودورنا نحن المسلمين أن ندعم الصواب، وأن نوهن الخطأ، وأن نذكر بما تنوسي من حق.

وفي ظلمات الجاهلية الأولى شعر نفر من ذوي القلوب النبيلة أن المستضعفين يجار عليهم في الحرم، وتغصب حقوقهم، فتجمعوا وقرروا أن يغيثوا الملهوف، ويبقوا إلى جانبه حتى يرضى، ذلك هو حلف الفضول الذي تم في دار عبد الله بن جدعان.

وبعد ظهور الإسلام ونزول الوحي، ذكر النبي ﷺ هذا الحلف بإعزاز وولاء وقال: لو دُعيت به في الإسلام لأجبتُ! نعم إن الإسلام الذي جاء به هو الإنسانية في صورتها الوسيمة، ونحن -انبعاثًا من هذا المعنى- نرى لزامًا علينا في الميدان الدولي أن نقاوم التفرقة العنصرية وأن نخاصم





الاستكبار بالقوة، وأن نقر عيننا بانتصار العدالة، وأن نفرح بشيوع الرخاء بين عباد الله.

إنني أغبط الرجال الذين يعملون باسم (لجنة العفو الدولية) على اليقظة الخُلُقية والغيرة الإنسانية التي تجعلهم يرقبون الأحداث في العالم، فإذا وجدوا ظلمًا شهروا به، ومزقوا الأستار عنه، وألبوا الدنيا عليه.

أشعر كأن هؤلاء الناس ينفذون التعاليم التي تلقيتها من رسولي المنصف الرحيم القائل: «إذا عُملت الخطيئةُ في الأرض كان من شهدها فأنكرها كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها»(سنن أبي داود)!!

إن الدين تحسين للحسن وتقبيح للقبيح حيث كان، ومن أي الناس كان. وأذكر أنني لم أعلم بمصارع العلماء الصوماليين العشرة الذين رفضوا قوانين الأسرة الجديدة في الصومال(١)، إلا من استنكار لجنة العفو الدولية لما وقع.

قلت: هؤلاء الساكتون أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان، أما الأجانب الغاضبون للظلم فهم أقرب إلى الإيمان منهم إلى الكفر! إن هلاك الأجيال على ظهر الأرض يجيء من شيوع الخبث وسكوت العارفين، قال تعالى:

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ

---

(١) كان ذلك في عهد الرئيس محمد سياد بري سنة ١٩٧٥م. (المجلة)





ظَلَمُوا۟ مَآ أُتۡرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجۡرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٍ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ﴾

(هود: ١١٦، ١١٧)

والانتماءات المزورة لا تخدع ذا لُبٍّ، كم من منتمين إلى الإسلام لو تفرست في أعمالهم ما وجدت أثـرًا لفطرة سليمة، أو تقوى حقيقية، وكم تجد مسالك هي الإسلام بعينه ولكن العنوان مفقود..!

أعجبتني نظم الشورى في الغرب، ورأيتها تطويرًا جيدًا لما حدث في سقيفة بني ساعدة قديمًا.

وتأملت في أحوال القائلين فرأيت ناسًا يُخزَى بهم الحق، وتُستخفى المروءة، يسترون عوراتهم العقلية بركعات ميتة، وتديُّن شائه، فقلت في نفسي: الأوربيون في نظم الشورى قلدوا النبوة والخلافة الراشدة، وهؤلاء العرب قلدوا الحَجَّاج والمعتصم وبقية السلاطين..!

ما أكثر ما ظُلمت أمتنا بالمتقولين الجهلة..!!

على أن الإنسانية في غيبة الوحي تشعبت بها الطرق وتفرقت مذاهب شتى كما زاحمت الفطرة غرائز وأهواء جامحة، والحضارة التي تسود العالم اليوم تشوبها نقائص ونقائص كثيرة.. وربما اختلف الناس في مفهوم العدل، بل في مفهوم الفضيلة والرذيلة، وبين الجبهتين اللتين تحكمان العالم تفاوت واسع في وجهات النظر.

وذلك كله يؤكد ضرورة الرجوع إلى وحي الله والاستهداء به





في متاهات الظنون، ومتشعبات الهوى. إنه لا بد من دين لدنيا الناس.

ونحن المسلمين نملك الوحي الخاتم، ومن حقنا وحدنا أن نتكلم باسم موسى وعيسى ومحمد جميعًا، فإن كتابنا جمع لباب الدين، وتضمن جملة الحقائق التي يفتقر إليها البشر، ليوفوا بحق الله أولًا، ثم ليتعايشوا متعاونين متراحمين في هذه الحياة.

بيد أن الناس لن يسمعوا حرفًا منَّا ما بقينا على تخلفنا الشائن، وما بقينا جهلة بقيمة التراث الذي لدينا، وما بقينا -على غنانا- نتسول من الشرق أو الغرب برامج إصلاح وضرورات حياة.

فلنستعد ثقتنا بأنفسنا ولنوثق إيماننا، ولنتمسك بالخصائص التي زكت، وارتقت بها أمتنا، وهي ما قررته الآية الكريمة:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١١٠)

إننا لسنا جبهة ثالثة في العالم، إننا الجبهة الأولى فيه، فلما أزرينا بأنفسنا أزرى بنا الآخرون، وطريق العودة ممهد لا مسدود!





٣٢- ما تأثير القرآن في الفكر الإنساني..؟

يحسب كثيرون أن صلة الدين بالقلب أسبق من صلته بالعقل، أو أنه بحسب الإنسان أن يكون صافي الروح نبيل الخلق صادق المشاعر ليتم دينه ويكتمل يقينه، مهما كان عقله بعد ذلك.

وذلك خطأ! فإن الإسلام يريد أولًا عقلًا سليمًا وفكرًا مستقيمًا، فما قيمة امرئ مشوش الذهن سقيم التفكير؟

إن صحة النظر إلى الأمور، ودقة الحكم على الأشياء تجيء أولًا، ثم تجيء الطيبة والنية الحسنة بعد ذلك.

وعندما بدأت الدعوة إلى الإسلام أهاب القرآن بالناس أن ينفضوا عنهم ما ورثوا من خرافة، وأن يعيدوا اليقظة إلى عقولهم المغيبة

﴿ ۞ قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ﴾

(سبأ: ٤٦)

كان المتعصبون للتقاليد القائمة يقولون:

﴿ بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ﴾

(الزخرف: ٢٢)






وكان النبي المكافح لإزالة هذه الغيبوبة العقلية يرفض هذا التقليد الأعمى

﴿ قَلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ﴾
(الزخرف: ٢٤)

لا بد من موازنة عادلة، ونتيجة صحيحة تحترمونها وتصيرون إليها! والحق أني لم أقرأ كتابًا منسوبًا إلى السماء احتفى بالنظر العقلي وخط على ضوئه معالم الإيمان مثلما فعل القرآن الكريم.

إنه يخاطب الإنسان هكذا

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾
(الحج: ٦٣)

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴾
(الحج: ٦٥)

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾
(الفرقان: ٤٥)

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾ (النور: ٤٣)





لعمري ما وجد العقل من بدء الخلق إلى يوم الناس هذا كتابًا يعترف به ويجلو بريقه ويمهد طريقه مثل هذا الكتاب الجليل ! كان الدين عند كثيرين ينتظم مع أدب الخيال وأحلام الوجدان وهيام الشعر وتهاويل الفن، حتى جاء القرآن الكريم، فإذا الدين علم يعتمد على الحقيقة، وقضايا تعتمد على البرهان، سواء اتصلت بعالم الغيب أو عالم الشهادة، أو كما يعبرون في عصرنا بالمادة وما وراء المادة.

وانضم العلماء بالدين إلى الملائكة المقربين في الشهادة بوحدانية الله وعدالته كما جاء في الآية:

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

(آل عمران: ١٨)

وبديهٌ أن العلم هنا ليس العلم النظري الجاف، لا، إنه علم صادق، مطابق للواقع، يمهد لما نسميه العاطفة العاقلة! ثم نتشبث به ونتعصب له، فلا نرخص قيمته ولا نتنازل عنه.. إنها خيانة أن نتخفف من الحق عند ثقل الأعباء، أو نستدير له إذا أرهقنا الأعداء..!

وفي القرآن الكريم نماذج كثيرة للتعريف بالحق ولفت البصائر إليه، ولنختر هذا النموذج! يقول الله -سبحانه وتعالى- معرفًا نفسه لعباده:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا






تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

(المؤمنون: ٧٨ - ٨٠)

هذه إنارة للعقل لا يجوز أن يضل بعدها الطريق، ومنهج القرآن في الحديث عن الله جدير بالاحترام كله، إنه يضع أصابع الإنسان على ما حوله ثم يقول له: فكر! أتظن الشمس عقدت اتفاقًا مع الأرض لتعاقب الليل والنهار؟ أتظن كلتيهما حددت المدار الذي يخصها، ووضعت عقوبة لمن يتجاوزه؟ إن هذه الأجرام السابحة في الفضاء لا تعقل شيئًا وإنما تديرها حكمة.. «أفلا تعقلون»؟

وبعد استعراض للكون تناول عرشه وفرشه جاء هذا التقرير الحاكم

﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

(المؤمنون: ٩٠ - ٩٢)

هذه عقيدة التوحيد، وتلك أسانيدها العقلية، تتابعت في سياق صريح قاطع يثبت لله كل كمال وينزهه عن كل نقص، ويسند إليه المدائح التي تنبغي له، وتليق بمجده!!

حسنًا، فهل وقف الأمر عند هذا التقرير المدعوم





ببراهينه؟ لا، لقد جاء بعده تيار عاطفي يدفع إلى البراءة من كل شرك وجهل، ويخوف من عواقب هذا الانحدار، جاء هذا التيار في صورة استعاذة من صاحب الرسالة أن يلحقه رشاش من الغضب الماحق الذي سينزل بالشاردين المعاندين، وغضب الجبار محذور، ومن شمائل العبودية أن نتوقاه، وننأى عن أسبابه:

﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٩٤) وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴾

(المؤمنون: ٩٣ - ٩٥)

والغريب أنه بعد تمزيق الحجب دون الحقيقة وبعد مواجهة البشر بما يحملهم عليها حملًا، يقول الله لنبيه ﷺ: تمهل، وتذرع بالحلم، وقابل بإحسان من يسيء

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾

(المؤمنون: ٩٦، ٩٧)

هذا نموذج من عشرات تنبني عليها السور في القرآن النازل بمكة والنازل بالمدينة على سواء، والغريب أن النموذج هنا من سورة مكية، والمستشرقون يرون أن القرآن المكي يعتمد على العاطفة أكثر مما يعتمد على الفكر.. فهل لديهم ما يوصف بأنه فكر أو عاطفة؟ إن ما لديهم فراغ!! ولا يوجد كتاب بنى الإيمان على البرهان، إلا هذا القرآن،



إن التفكير فريضة إسلامية كما يقول الأستاذ العقاد !

ومجال التفكير هو في العالم المادي، هنا يستطيع الإنسان أن يلاحظ ويستنتج ويتابع التجارب ويكرر الفروض ويصل آخر الأمر إلى ما يفيده في دينه ودنياه، وذلك ما نبه إليه القرآن الكريم عندما قال :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾

(آل عمران : ١٩٠، ١٩١)

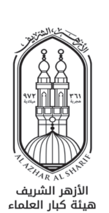
أولو الألباب هنا يتفكرون في خلق العالم ! ويستنتجون من قوانينه المطردة ونظامه المتناسق أنه مخلوق لرب حكيم، فلا عبث ولا فوضى.

وفي أول السورة نفسها ورد ذكر أولي الألباب على نحو آخر، إنهم لا يحاولون اكتناه الذات العليا، ولا يخوضون فيما يصعب دركه من شئونها، إنني شخصيا «أشعر» بأن الله ملكٌ مستوٍ على عرشه، لا يند شيء عن سلطانه، ولا يبعد أمر عن حكمه ! لكن كيف ذلك ؟ لا أدري !

أنا لا أدري علاقة روحي بجسدي، فكيف أدري استواء الله على عرشه ! !

الأفضل أن أتجاوز ذلك إلى غيره على نحو ما قيل :





إذا لم تستطع شيئًا فدعه
وجاوزه إلى ما تستطيع ! !

﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾

(آل عمران : ٧)

على أن هذا التسليم ليس جواز مرور للخرافة أو قبولاً للمتناقضات ! وكما قيل : ما يعز على العقل فهمه شيء، وما يحكم العقل باستحالته شيء آخر .

وقد حارب القرآن الأوهام وكم يعيش الناس صرعى أوهام ! وحارب الظنون وكم من ظنون توارثها البشر، وجعلوا منها عقائد مقدسة ! وما كانت يوم وجدت إلا شائعات لا أساس لها .

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾

(يونس : ٣٦)

ومن هنا نهى الله سبحانه وتعالى أن نتبع ما لا نعلم وأن نتأثر بما لا أصل له، لقد وهب لنا الفكر والحواس لنستخدمها في تبين الحق، وسوف يسألنا عن طريقة استخدامنا لتلك المواهب .

﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ (الإسراء : ٣٦)






ومن معالم الجماعة المسلمة أنها تحترم المنطق، وتسلم باليقينيات وتخضع لسطوة العلم! وقد مضى هذا المنهج إلى غايته وهو يحارب الشرك ويؤسس التوحيد، فترى الحملة على المشركين معللة بأنهم يتبعون ما لا دليل عليه! قال تعالى:

﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾

(المؤمنون: ١١٧)

بل إن ذلك يراعى عند قصص الأولين، وذكر أسباب الخروج على الضالين المستبدين، فقد جاء على ألسنة الفتية أهل الكهف

﴿ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَـٰنٍۭ بَيِّنٍ ﴾

(الكهف: ١٥)

أي بدليل واضح مقبول!

الحق أن أثر القرآن الكريم في الفكر الإنساني عميق، إنه هو الذي أقام الإيمان على المنطق ورفع راية العقل!





٣٣- كيف ولماذا، وقع النسخ في القرآن..؟

للنسخ معنيان: أحدهما سائغ لا ريبة فيه، وهو تخصيصُ عامٍّ أو تقييدُ مطلقٍ، أو إظهارُ حكمٍ ما بطريق التدرج.

والثاني محو حكمٍ سابقٍ بآخرَ لاحقٍ، وهو عند التحقيق العلمي لا وجود له في القرآن الكريم!![(١)]

ونسوق الأمثلة الشارحة لما ذكرنا، المرأة إذا فقدت زوجها وجبت عليها عدة وفاة مقدارها أربعة أشهر وعشرة أيام، كما جاء في الآية الكريمة:

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾

(البقرة: ٢٣٤)

لكن هذا الحكم العام عرض له استثناء ضيق دائرته، فإن المتوفَّى عنها زوجها إذا كانت حاملًا فعدتها وضع الحمل،

---

(١) هذه وجهة نظر الشيخ- طيب الله ثراه- وذاك قوله ورأيه في مسألة النسخ، وقد أفصح عن رأيه هذا في إنكار النسخ بمعنى إزالة حكم سابق بآخر لاحق في غير ما كتاب من كتبه بل شن حملة شعواء على القائلين بالنسخ- كما ترى هنا- وأقام الأدلة التي تؤيد رأيه وترد أقوال القائلين بالنسخ. والجمهور على جواز النسخ بمعنى إبطال الحكم الشرعي بدليل شرعي متراخ عنه، ولم يخالف في ذلك من المسلمين سوى أبي مسلم الأصفهاني، فإنه جوزه عقلًا ومنع وقوعه شرعًا، ومع قول الجمهور بجواز النسخ ووقوعه فإنهم يرون أن مسائل النسخ في الشريعة والقرآن قليلة جدًا هذا أولًا، وثانيًا: فإنهم لا يلجئون إلى القول بالنسخ إلا إذا تعارضت الأدلة وتعذر الجمع بينها.



ولو بعد يوم من الوفاة ! قال تعالى :

﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾

(الطلاق : ٤)

كلتا الآيتين لها موضعها الذي تُعمَل فيه، وحكمها باقٍ إلى قيام الساعة.

وحرم الإسلام أكل «الدم» وجاء ذلك في الآية :

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾

(المائدة : ٣)

إلخ .. ثم جاءت آية أخرى تكشفت أن الدم المحرم هو السائل من الذبيحة

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾

(الأنعام : ١٤٥)

إلخ، فعلم من ذلك أن الشارع يبيح أكل الكبد والطحال وكان العرب يعدونها من الدم، فتقيد الدم المحرم بصفته المذكورة !

أما التدرج في الكشف عن حقيقة حكم ما، فإنه يبدأ تلويحًا يفهمه الأذكياء، ثم تزداد الإبانة بما يكاد يوحي بالحكم، ثم يجيء الحكم حاسمًا بالمعنى المراد، وقد تم تحريم الربا والخمر بهذا الأسلوب المتأني، وليس في القرآن نص بإباحة الخمر أو الربا !





وعندما يقول سبحانه:

﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ﴾

(الروم: ٣٩)

فذلك تمهيد لقوله فيما بعد

﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ﴾

(البقرة: ٢٧٥)

وعندما يقول:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾

(البقرة: ٢١٩)

فذلك تمهيد لقوله فيما بعد

﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾

(المائدة: ٩٠)

إن هذا التدرج كان الطريقة المثلى لفطام الناس عن رذائل ألفوها وأدمنوها، وتعصبوا لها، وقد حاولتْ الولايات المتحدة تحريم الخمر بقانون صارم مرة واحدة ففشلت فشلًا محزنًا، بصورة أشنع!! وتبين أن منهج الشارع الإسلامي في تحريم الخمر أذكى وأحكم!!

ومنفعة الميسر أن ربحه كان يُرمَى للفقراء، ومنفعة الخمر ما يشعر به الشارب من نشوة وغيبوبة ينسى فيها أحزانه،





إلى حين، أو ما يحسه من دفء كاذب! وكفة الإضرار أرجح. والقانون الشرعي «للأكثر حكم الكل، وما قارب الشيء يعطَى حكمَه..»

وبعض المفسرين رأى أن الآيات الأخيرة في الخمر والربا ناسخة لما نزل قبلها من آيات، متوهمًا أن بينها تعارضًا، وهذا خطأ فلا تعارض ولا نسخ..

بيد أن حُمَّى النسخ أصابت قومًا من الفقهاء والمفسرين فجعلتهم يقولون كلامًا غريبًا، أذكر أني كنت أقرأ شرح الخازن لسورة الأنعام بدءًا من قوله تعالي:

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾

(الأنعام: ١٠٤)

فإذا الرجل يقول: الآية منسوخة، وبعدها قال تعالى:

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾

(الأنعام: ١٠٦)

فإذا هو يقول: الآية منسوخة!

ولا أدري بدقةٍ كم آيةً نسخها في صفحة واحدة!!

وقد وصل بعضهم بالآيات المنسوخة إلى بضع مئات، وهذا كلام منكر، وقد رفضه الراسخون في العلم، والشبهة التي قامت في ذهن الخازن -غفر الله له- أنه ظن آيات الجهاد





تعارض الآيات التي ذكرها ، وهو ظن مستبعد ![1]

بل إن البعض يرى قوله تعالى :

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾

(التغابن : ١٦)

ناسخًا لقوله تعالى :

﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾

(آل عمران : ١٠٢)

كأن بين الآيتين تناقضًا ، ولا تناقض إلا في دماغه هو ! ![2]

(١) سارع كثير من المفسرين إلى القول بنسخ كل آية فيها أمر بالصفح أو العفو أو الصبر على أذى المشركين وإمهالهم، ونحوه بالآيات الآمرة بالجهاد، والحق أن هذا ليس نسخًا كما ظنوا، وإنما هو نسء. وفرق بين النسخ والإنساء، فالنسخ رفع الحكم الشرعي بالخطاب الشرعي قبل التمكن من العمل بالحكم الأول، وأما الإنساء فهو شرع الحكم من أجل سبب أو إلى وقت، ثم يتغير هذا الحكم بتغير السبب والوقت، فكل حكم عُلق على سبب أو أقت بوقت وتغير بتغير السبب أو بانتهاء الوقت المحدد له يسمى إنساءً لا نسخًا، وبهذا التحقيق يتبين ضعف ما لهج به كثير من المفسرين من أن آيات العفو والصفح منسوخة بآيات الجهاد، والحق أنها ليست كذلك بل هي من المنسأ بمعنى أن كل أمر ورد يجب امتثاله في وقت ما لعلة توجب ذلك الحكم، ثم ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر، وليس هذا بنسخ، إنما النسخ الإزالة والمحو حتى لا يجوز امتثال الأمر أبدًا، والله أعلم.

(٢) لا نسخ بين الآيتين هنا، لأنه تعارض ولا تناقض بينهما - على ما حققه الشيخ الزرقاني في كتابه مناهل العرفان - فإن تقوى الله حق تقواه المأمور بها في آية آل عمران معناه الإتيان بما يستطيعه المكلفون دون ما خرج عن حد استطاعتهم، وقد ورد تفسيرها بأن يحفظ الإنسان رأسه وما وعى وبطنه وما حوى ويذكر الموت والبلى، ولا ريب أن ذلك مستطاع ومقدور عليه بتوفيق الله، فلا تعارض إذن بين الآيتين، وحيث لا تعارض فلا نسخ.



لقد رأيت القائلين بالنسخ يتورطون في مهازل، وعلة هذا أنهم بعيدون عن التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، سواء كان هذا التفسير يتبع قضية واحدة في طول القرآن وعرضه، أو كان استكشافًا للوحدة التي تشمل أجزاء السورة، والتي تجعل آياتها معالم لصورة بينة التقاسيم، متعانقة المعاني والأهداف.

وعلى أية حال، فما من آية في كتاب الله قيل بنسخها إلا كان هناك قول آخر بإحكامها، حتى ما كان ظاهره النسخ مثل قوله تعالى:

﴿ ٱلۡـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ ﴾

(الأنفال: ٦٦)

قال كثيرون: كان الحكم الشرعي أن يثبت الواحد لعشرة من الأعداء ثم خفف بالثبات أمام اثنين!

وقال المحققون: الحكم الثابت والعزيمة الماضية أن يقف الواحد أمام عشرة ما دام قادرًا صابرًا آملًا في النصر أو راغبًا في الشهادة، على أن له رخصة أخرى إن عجز، وهي أن يقف أمام اثنين ولا يؤذن له بترك العدو أبدًا دون ذلك.. قالوا: والرخصة هنا كقصر الصلاة في السفر، فالقصر في السفر لا ينسخ الإتمام في الإقامة.

وما دام لم يرد قول بنسخ إلا ورد معه قول بإحكام،





فلنستبعد إبطال الآيات ولنقرر أنه لا نسخ في القرآن الكريم أبدًا، إلا ما كان بمعنى تخصيص العام أو التدرج في التشريع.

قد يقال: أليس يقول الله تعالى:

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾

(البقرة: ١٠٦)

لقد ذكر صاحب المنار الوجه الحق في تفسير هذه الآية، ونقلت رأيه مع تعليقات لي في كتابي (نظرات في القرآن الكريم)، وخلاصته أن الآيات نوعان تكليفية وتكوينية.

والمقصود بالآيات التكوينية خوارق العادات التي يجريها الله لتأييد أنبيائه ودعم رسالتهم، ومن هذا القبيل قوله تعالى:

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾

(الأنعام: ١٠٩)

وقوله:

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾

(الإسراء: ٥٩)

أما الآيات التكليفية، فهي كلمات الله المتضمنة هداه لعباده، وذلك مثل قوله تعالى:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾

(الجاثية: ٧، ٨)






وقوله:

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾

(يوسف: ١)

والنسخ يقع في الأولى ولا يقع في الأخرى، فإن المعجزة التي تصلح لأمة، لا تصلح لأخرى، ولا شك أن المعجزة الأخرى، التي أيد الله بها خاتم أنبيائه تغاير الخوارق الحسية التي أيد بها الأنبياء السابقين.

وقد طلب كفار قريش وغيرهم خوارق حسية محددة، وجاء بعد قوله تعالى:

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾

إلخ.. مقترح عجيب من هؤلاء الكفرة

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾

(البقرة: ١١٨)

بل إن آية

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾

اتصل بها قوله تعالى:

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾

(البقرة: ١٠٨)



وهو تساؤل يجعلنا نقطع بأن النسخ ليس في آيات تكليفية أو أحكام شرعية، وإنما هو في حقيقة المعجزة التي تصحب رسالات المرسلين وتشد أزرهم أمام أعدائهم، وقد كان مشركو العرب ضائقين بالمعجزة الإنسانية التي ميز الله بها محمدًا ﷺ، يريدون معجزةً تسير الجبال لا معجزة تصنع الرجال!

ومن الشائعات التي انطلقت في ميدان النسخ أن هناك قرآنًا أُنزِلَ ثم سُحِب!

والمعروف في ديننا أن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر الذي يفيد اليقين، وأن خبر الواحد لا يُثبِت قرآنًا أبدًا، فالزعم بأن قرآنًا كان، ثم رُفع كلامٌ لا يلتفت إليه.

والقرآن الكريم قد ينسخ أحكامًا جاءت في السنة الشريفة، وذلك مثل نسخ استقبال بيت المقدس في الصلاة باستقبال المسجد الحرام، قال تعالى:

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾

(البقرة: ١٤٤)

واستقبال بيت المقدس لم يكن بنص قرآني، وإنما كان بإلهام إلهي عن طريق السنة التي يُهدَى إليها قلبُ الرسول الكريم، ولم يكن ذلك اجتهادًا شخصيًا، قال تعالى:





﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾

(البقرة: ١٤٣)

ومن قبيل نسخ السنة بالقرآن الكريم، منع تسليم النساء المؤمنات إلى قريش، وقد كان عهد الحديبية ينص على رد كل من آمن إلى مكة، حتى نزل قوله تعالى:

﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾

(الممتحنة: ١٠)





٣٤- هل الاستدلال القرآني في قضية الألوهية على الوجود أم على التوحيد؟

إن الطفل الذي يودع في أحد الملاجئ قد يفكر في أبيه عندما يكبر ، وقد يبحث عنه ، ولكن لا يجري في خاطره أبدًا أنه جاء الدنيا من عدم ، أو ظهر على الأرض من غير أب ! !

والبشرية في أغلب العصور بحثت عن ربها ، وفكرت فيه ، وربما أخطأت الطريق إليه ، فقد تعبد اسمًا لا حقيقة له ، وقد تعبد حجرًا موهوم الضر والنفع ، وقد تعبد عِجلًا أو تقدس بقرةً أو تؤلِّه نهرًا ، وقد يجيء من يرفض هذه الآلهة المزعومة كلها وينكر أن يكون للوجود سيد ! !

إن قضية الألوهية في التاريخ الإنساني يكتنفها قدر من الغموض ، وجمهرة الأمم رنت إلى إله كبير ، ثم رمزت إليه أو تعرفت عليه عن طرق التماثيل ، أو الكائنات التي تنتمي إليه على نحوٍ ما ، ويخيل إليَّ أن رفض عقيدة الألوهية من الأساس لم ينجم إلا بعد شيوع التدين الخرافي ، ورفض العقلِ السجودَ لحجرٍ أو حيوان أو إنسان .

وكان هذا الرفض المطلق يقع على ندرة ثم شاع في عصرنا الحديث ، مع التقدم العلمي وانتشار تدين مغشوش ، وخيانة المسلمين لرسالتهم فما بلَّغوها ولا أنصفوها .

وحديث القرآن الكريم عن الألوهية يتسم بالوضوح الشديد ، فهو ينفي الشركاء بحدة وحسم ، وينفي أن يكون






هناك أحد فوق مستوى العبودية لأن له بالله صلة خاصة، لا، هو إله واحد، وكل ما عداه عبدٌ له

﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴾

(مريم: ٩٣ - ٩٥)

وخلال الحديث عن الوحدة، وكشف الحجب عن أمجاد الإله الحق، وأسمائه الحسنى، وأوصافه العلى، تتشعب الدلائل لتسحق كل تفكير قد يعرض عن استغناء العالم عن ربه، وقيامه بنفسه.

أي إن شرح حقيقة التوحيد في الأسلوب القرآني يمحو آثار الإلحاد، وينفي شبهات الملحدين، وبذلك تتعانق أدلة الوجود الأعلى وأدلة التوحيد المطلق في نسق فذ!

وهاك أمثلة من الكتاب العزيز، يقول الله سبحانه عن المشركين:

﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾

(الزخرف: ٩)

﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾

(الزخرف: ٨٧)

إن وصف الله سبحانه الخالق يعني أنه أوجد العالم من






عدم، فهو بارئه ومبدعه ومصوره ومبدئه ومعيده.. إلخ، ومعنى أن العالم مخلوق أنه برز من العدم إلى الوجود بقدرة قادر وحكمة حكيم وعلم عالم.. إلخ، إن الصفر لا يصنع شيئًا، والعدم لا ينشئ وجودًا، ومن ظن أن العالم كان معدومًا ثم عراه الوجود من غير شيء فهو أحمق.

والخلق مِن لا شيء ليس عملًا تافهًا يقدر عليه أي تافه، ومن يتصور ذلك فهو مغفل! إن الخلق عمل هائل، وإذا كان صنع مطبعة أو سيارة أو راديو يحتاج إلى متخصصين مهرة -وهذا عمل دون الخلق بمراحل- فكيف بالخلق نفسه؟ إنني لا أجنح إلى خيال بعيد، ولكنني أسأل: إن العلماء مشدوهون أمام سعة الكون التي لم تعرف لها إلى اليوم نهايات، أفلا يكون رب الكون أكبر من الكون نفسه؟ بلى، والله أكبر!

الأمر هنا ليس نفيًا للشركاء! فإن الشركاء تساقطوا من أول الطريق! والوثنيون لم يزعموا لأحجارهم شيئًا، والمصابون بجنون العظمة كفرعون وأضرابه لم يزعموا أنهم خلقوا شيئًا

﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾

(الزمر: ٦٢)

ولا يسوغ لأحد أن ينتظر من القرآن الكريم أن يجعل من الوجود الأعلى قضية هي موضع الأخذ والرد والقبول والإنكار! الله أعلى وأجل! أقصى ما ينتظر أن يتناول أوهام





الجهال بما يدمغها، وأن يدوس التعطيل وهو يمحو الشرك!

وتدبر الآيات

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾

(يونس: ٣١، ٣٢)

ظاهر من السياق أنه لنفي الشركاء، وأظهر منه أنه لنفي الإلحاد والتعطيل، ذلك أن صور الموت والحياة تترادف تحت حواسنا، ومن حقنا أن نسأل: مصانعُ مَن التي اختفت تحت التراب تبرز الحبوب والفواكه؟ ومع من اتفقت لتحول المياه الكدرة إلى ورد وأزهار وطعوم جيدة وألوان بهيجة؟؟ مَن رب هذه وتلك؟ إنه الله!

وفي كل لحظة من ليل أو نهار تخرج من بطون الأمهات أطفال سوية المشاعر، نابضة بالحياة، صالحة للنماء، مستعدة للاكتمال العقلي والعاطفي، متهيئة لشتى التكاليف، من جعلها كذلك؟ هل الأب هو الذي اختار خصائص الوراثة في الحيوان المنوي الذي أنزله؟ إنه لا يدري كيف تكوَّن ولا متى ولا مِن أين جاء؟ هل الأم اختارت بويضتها، وساعة نزولها؟ إنها ليست أقل جهلًا من رجلها!! من المسئول عن هذا الإيجاد الذي لا يمكن إنكاره؟ إنَّ رد الإيجاد إلى



«الصفر» أو إلى «س» أو إلى «مبهم» سخف لا يطيقه إلا فكرٌ ساقطٌ سخيفٌ! المسئول عن هذا: القائل:

﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴾

(الرعد: ٨)

وكل أنثى هنا تعميم يستوعب الإناث في عالم الأحياء من طير ودابة وحشرة وزاحفة، في البر أو البحر، بل من الإنس والجن! ولذلك جاء عقب هذه الكلية المحيطة المستوعبة قوله:

﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴾

(الرعد: ٩)

إن الفرار من الحقائق ليس ذكاءً ولا شرفًا، وإذا كان بعض الملحدين يحسب نفسه مفكرًا، فليعلم واقعه المر! إنه امرؤ معتل الفكر، مصاب بداء عقلي منفر لا يقل عن الجذام! بل ربما كان المجذوم أشرف خلقًا وأصح فكرًا.

قلنا: إن منهج القرآن هو الجمع في سياق واحد بين دلائل الوجود الأعلى وأدلة الوحدانية المطلقة، ليس القرآن كتابًا فنيًا يفرد فصلًا لهذه القضية، وفصلًا لتلك القضية، إنه يبني العلائق بالله على نحوٍ يربط الناس بخالقهم، ملك الأسماع والأبصار والأفئدة، مدبر الأمور كلها، الذي لا راد لحكمه، ولا مهرب من قضائه، ولا منتهى لعلمه، ولا مجير عليه.






ومن رحمة الله بخلقه أن يفتح عيونهم على آياته ليعرفوه من خلال نظرهم في هذا العالم الذي يعيشون فيه..

يقول تعالى:

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾

(البقرة: ١٦٣)

الجملة الأولى فيها تأسيس لعقيدة التوحيد، والجملة الثانية فيها نفي لحكاية الشركاء، والآية كلها تمهيد للحديث عن مجالي الوجود الإلهي في آفاق العالم

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

(البقرة: ١٦٤)

في هذه الآية تنبيه للعقلاء إلى أن كل شيء في الكون يشير إلى سيده، ويدل على الخالق الكبير، وقد جاء الكلام على أسلوب السرد المجمل، لكننا نرى التفصيل في مواضع أخرى، تدبر قوله تعالى:

﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ





مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمُبۡلِسِينَ ﴾

(الروم: ٤٨، ٤٩)

بعد هذا التفصيل لنزول الغيث إلى مترقبيه بلهفة بالغة تسمع رب العالمين يقول للإنسان:

﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ ﴾

(الروم: ٥٠)

كأنه يقود المرء إلى النتيجة البديهية بعد تجربة معملية تمت بين سمعه وبصره! هذه آثار الرحمة، وهذه آثار القدرة، وهذه مظاهر العلم وهذه إلخ.. كل شيء يشهد لله ويوجه إليه!!

وكما قال للإنسان انظر.. قال للناس:

﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾

(الأنعام: ٩٩)

ومما يعين على فهم الأسلوب القرآني أن نتذكر حقيقة فلسفية معروفة هي أن العالم ليس له من ذاته وجود! إن وجوده طارئ عليه من الخارج! أترى المصباح الكهربائي عندما تغمز «الزر» فيضيء؟ إنه لا يضيء أبدًا من ذاته، لا بد من تيار خارجي يسري فيه ليتوهج! إنه معد فقط للاستقبال،





وإشعاع ما يجيئه من جهة أخرى، كذلك الكون، إن وجوده، ذاتًا وصفات مفاض عليه من أعلى، وإذا انقطع التيار الذي يمده تلاشى، واستخفى فلا أثر له، وهذا معنى قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾

(فاطر: ٤١)

وعندما يلفت القرآن الكريم نظرنا إلى آيات الله في الأرض والسماء وما بينهما، فهو يعطينا فكرة عن الإيجاد والإمداد معًا، ولا بأس أن يضم إلى ذلك إشعارًا بأنه الله الواحد، وأن ما عداه من آلهة مزعومة إفك مبين

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ﴾

(غافر: ٦٤، ٦٥)

هكذا اشتمل القرآن على دلائل الوجود الأعلى في ثنايا توحيد الله وتمجيده، فالله أعظم وأعز من أن يكون إثبات وجوده أمرًا يفرد له عنوان، وكأنه موضوع يفتقر إلى البرهان.





٣٥ - ما أهمية القصص في القرآن؟ وهل لها أصل تاريخي؟ وما الحكمة في تكرارها؟

لا بد من دراسة الماضي والتفرس في أحداثه، فإن هذه الأحداث ليست ملكًا لأصحابها، وإنما هي ملك الإنسانية جميعًا، يدرسها الخلف ليستفيدوا منها العبر، ويستخلصوا منها النتائج، ويضعوها نصب أعينهم وهم يخططون للحاضر والمستقبل على سواء.

وظاهر أن سير الأفراد والأمم يخضع لسنن دقيقة، وأن ازدهار الحضارات وانطفاءها، وبقاء الدول أو فناءها لا يتم خبط عشواء وإنما يقع وفق قوانين صارمة! بل إن القوانين الاجتماعية لا تقل عن القوانين العلمية دقة واطرادا، ومن ثم كان تجاهل هذه القوانين وخيم الآثار.

وقصص القرآن الكريم جزء من التاريخ المهم، ومعرفتها حصانة للباحثين لا يستغني عنها ذو لب، قال تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرًا﴾

(طه: ٩٩)

وقد لام سبحانه الغافلين عن هذا التاريخ وما وعى من مصارع الظلمة وهلاك المفسدين:





﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾

(طه: ١٢٨)

وقال:

﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾

(الأعراف: ١٠١)

وتتشابه القوانين الاجتماعية والقوانين الكونية في عمومها وانطباقها على شتى الأمكنة والأزمنة، فقانون الأجسام الطافية مثلا يشمل جميع الأنهار والبحار، وانهيار الأمم لشيوع الفوضى والفساد يتناول شتى الأجناس والعصور، وقد هدد الله العرب بالمصير الكالح إذا بقوا على عنادهم ومكرهم.

﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾

(فاطر: ٤٣)

وسنن الله الكونية لا تحابي أحدًا، وكذلك سننه التاريخية والحضارية، وهي منطبقة على المؤمنين والكافرين دون استثناء، وقد وقعت محنة أحد لأن المسلمين لم يلتزموا





أسباب النصر ، بيد أن الهزيمة الطارئة لن تغير مستقبل الضلال ، وإن واتته مؤقتًا ظروف مساعدة قال تعالى :

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (آل عمران : ١٣٧- ١٤٠)

وقد تضمن القرآن الكريم عدة قوانين اجتماعية وعمرانية حاسمة ساقها في تضاعيف القصص التي ذكرها أو في خواتيمها مثل قوله سبحانه :

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

(القصص : ٨٣)

وقوله :

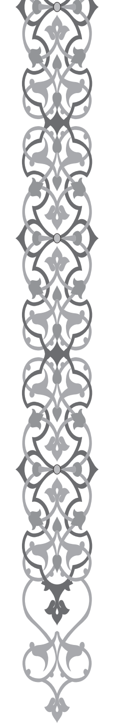
﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(يوسف : ٩٠)

وقوله :

﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ (الرعد : ١٧)

.... إلخ







إن القصص القرآني سرد واع موجه للتاريخ الإنساني ليس الغرض منه الإلهاء والتشويق ! بل الغرض منه التربية والتوعية وتجديد المعاني بعد انتهاء أهلها لتكون عظة دائمة ! !

وقد شاع أدب القصة في عصرنا شيوعًا يستحق الدهشة ، وامتلأت الأيدي بروايات يقرؤها حاملوها ليقطعوا الوقت أو يلتذوا بحسن العرض ! وجملة هذه الروايات من نسج الخيال ، وقد تكون ذات مغزى جيد ، وقد تكون إثارة وضيعة .

والبون شاسع بين هذه الأقاصيص ، وبين التاريخ الذي يجسده القرآن الكريم ويغزو به الألباب والبصائر ليمحو الغفلة ويرفع المستوى ويضيء السبل . البون بعيد بعيد .

عندما يقول الله لنبيه :

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(هود : ١٢٠)

فهو يقول ذلك في أعقاب سرد لواقع لا ريب فيه ، فقد ذكر في هذه السورة قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى مع أممهم التي ظهرت في عصور متعاقبة ، وانتظمتها أدواء التكذيب والمكابرة حتى أهلكتهم أمة بعد أخرى .

وهو يحكي ذلك إرهابًا للعرب المستكبرين وتسلية للنبي وتسرية له ! وفي موضع آخر يقول له :

﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ





نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ (الأنعام : ٣٤)

فأيـن موضـع الخيال في هـذه الوقائع ؟ وبعـد أن قص الله سبحانه قصة يوسف، وشرح أطوار حياته منذ اختطف إلى أن صار ملك مصر قال عنه وعن غيره من المرسلين :

﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ (يوسف : ١١١)

فأين موضع الخيال هنا ؟

إن اتهـام القـرآن بأنـه يعرض خيـالات فنيـة أو يمزج في سـياقه بين الواقع والخيال اتهام لا مسـاغ لـه، هو في نظرنا بلاهة نشأت عن اتّباع المستشرقين !

والمستشـرقون يحسـون ما فـي كتبهم مـن غثاثة وعوج وبعـد عن الحـق، ويريدون الإيهـام بأن القـرآن لا يزيد على غيره ! وهذا كذب لا يروج عند عاقل . . ! !

ومعلـوم أن القصة واحدة قد تتكرر في عدة سـور، غير أن هذا التكـرار صوري، فإن كل قصة تختلـف عن الأخرى، إما في العناصر الجوهرية التي تتألف منها، أو في طريقة العرض الذي يناسب مقتضيات الأحوال . . !

فقصة موسـى وبني إسـرائيل في سـورة (غافر) انفردت بالحـوار الطويل للرجـل المؤمن الذي يكتـم إيمانه، بل هو العنصر البارز فيها .






والقصة نفسها في سورة (القصص) انفردت بتفصيل السبب في خروج موسى إلى أرض مدين وزواجه هناك..!

والقصة في سورة الكهف انفردت بلقاء موسى مع الخضر هذا اللقاء المثير المستغرب! والقصة في سورة طه انفردت بالحديث عن العصا التي كان موسى يهش بها على غنمه ثم تحولت إلى قوة هائلة في يده، كما انفردت بأدعية موسى وإجابة الله له ... إلخ.

وقد استطال الحديث في سورتي البقرة والأعراف عن قصة بني إسرائيل، ومع ذلك فإن المنهج غير المنهج، والنتائج غير النتائج، وما اتفقت فيه السورتان جاءت صياغته على نحو يلائم البيئة المتغيرة فالسورة الأولى مدنية والأخرى مكية.

وشرح النواحي الفنية والموضوعية في هذه القصة وحدها يحتاج إلى كتاب عن (اليهود في القرآن الكريم) مع ملاحظة أن القرآن ليس كتابًا فنيًا في الجغرافيا أو التاريخ، إنه يهتم بالجانب الإنساني والاجتماعي وحسب!

والحوار المبثوث في أرجاء كل قصة يساق بحكمة إلى غاية محددة! خذ مثلًا قصة شعيب مع مدين في سورة الأعراف، لقد جاء فيها هذا الخطاب يناشد فيه شعيب قومه ألا يستبد بهم اللدد في الخصومة، وألا يحملهم النزق على ارتكاب ما لا يليق



﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ (الأعراف : ٨٧)

أي دعـوا الأمر للزمن، ولا تتعجلـوا العواقب! فماذا كان الجواب؟

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾

(الأعراف : ٨٨)

وظاهـر أن هذا السياق من قبيل (إياك أعني واسـمعي يا جـارة)، وكأن النبي يقول للعـرب المناوئين له: احذروا مثل هـذا المسـلك في مصـادرة الإيمـان ومخاصمة أهلـه فعقباه صيحة من السـماء تذركم في دياركم هلكى كما حدث لقوم شعيب!!

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

(الأعراف : ٩١، ٩٢)

ويلفت نظرنا فـي تكرار أي قصة أن القرآن الكريم يقلب النفس الإنسانية على شتى جوانبها، ويعالجها طورا بالهدوء وطورا بالصرامة، طورا بالشـدة وطـورا بالرخاء، والغرض أن تتـرك باطلها وتقبل على هدايـة الله، انظر مثلًا إلى قصة هود





مع عاد، إنك ترى هودا في سورة الأعراف بدأ هادئا طويل الأناة مع ناس أشبه بالثيران الهائجة

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ (الأعراف: ٦٥، ٦٦)

فإذا تأملت في القصة نفسها عندما تعرضها سورة هود وجدت النبي الحليم يبدأ منددا بوثنية قومه، وحاسمًا في كشف كذبهم على الله، ومنذرًا بسوء المآل إن هم بقوا على جبروتهم:

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴾

(هود: ٥٠ - ٥٢)

وتفسير هذا أن لقاء أي نبي مع قومه لا يقع مرة واحدة، إنه لقاء يبقى عشرات السنين، وما يدور بينهم وبينه من حديث لا يأخذ صورة واحدة، بل يأخذ صورًا كثيرة!

وحتى لو وقع لقاء واحد -كما حدث لموسى مع السحرة- فإن كل ما دار من حوار لا يثبت في عرض واحد، بل توزع أجزاء الحوار على ما تقتضيه المناسبات المتفاوتة.







ومن ثم كان القصص القرآني مجالاً رحبًا لمعالجة النفوس والجماعات من عللها المنوعة بما يلائمها من الدواء الناجع، فسبك القصة ملحوظ فيه نقل ما يفيد الناس من بدء الوحي حتى قيام الساعة!

ليس المهم تحديد مولد أو وفاة، ليس المهم تحديد موقع أو حتى تحديد الشخص! فما يعنينا أن نعرف (هوية) ذي القرنين، أو الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى!! المهم تقديم الشفاء النفساني والاجتماعي من خلال تاريخ صادق وقصص حق.

***



٣٦- ما تفسير الآيات التي قد تصف الله -سبحانه وتعالى- وصفًا ماديًا؟

مثل ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (الفجر: ٢٢)

جلست يومًا أفكر: ما أنا بين الناس؟ قلت: واحد من ألوف مؤلفة تسكن هذه الأرض، سألت مرة ثانية: ما أنا بين من سكنوها منذ الأزل ومن يسكنونها آخر الدهر؟

فشعرت بأني أتضاءل، وأن وجودي يصغر!

سألت مرة ثالثة: ما أنا بين شتى العوالم؟ إن أرضنا التي نحس ضخامتها ذرة محقورة بين أسراب لا تحصى من الكواكب الثابتة والدوارة، وما يقدر العلماء أبدا على معرفة حدود هذا الكون، ولا أن يعرفوا ما يزخر به من أحياء..!

وشعرت بأني أزداد تضاؤلا..! وقلت: يجب أن أعرف قدري، وألا أعدو حدي، إن الغرور جريمة علمية قبل أن يكون جريمة خلقية.

وراقبت بعض الحشرات السارحة في عالمها الخاص بها وقلت: أتدري عن عالم الإنسان شيئًا؟ أتعرف ما يجول في فكره؟ أتعرف ما يبحث من قضايا وما يقرأ من كتب؟ كلا كلا أنى لها هذا؟

قلت: إن علمي بحقائق الألوهية كعلم هذه الحشرات بحقيقتي! ينبغي أن أعرف قدري وألا أعدو حدي! إنني نقطة





مغموصة في مساحات رهيبة من الزمان والمكان كيف تحاول قطرة في ترعة أن تستوعب البحار والمحيطات وتشرف على اللجج والأنواء؟

ورحت مع أبي القاسم القشيري أناجي ربي بهذه الأبيات :

يا من تقاصر شكري عن أياديه
وكَلَّ كُلُّ لسان عن معاليه
وجوده لم يزل فردًا .. بلا شَبَه
علا عن الوقت ماضيه وآتيه
لا دهر يخلقه، لا قهر يلحقه
لا كشف يظهره لا سر يخفيه
لا عد يجمعه، لا ضد يمنعه
لا حد يقطعه .. لا قطر يحويه
لا كون يحصره لا عون ينصره
وليس في الوهم معلوم يضاهيه
جلال أزلي لا زوال له
وملكه دائم لا شيء يفنيه !!!

إن القرآن الكريم حسم طيش الخيال عندما قال في التنزيه والتجريد :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾

(الشورى: ١١)

ونحن من بعيد قد نشيم لمعان البرق، وقد يمر بعقلنا طيف عن أمجاد الألوهية، لا ندري مأتاه، ومع ذلك فإن هذه







الخطرات العابرة لا تغني شيئًا، بل هي كما قال أبو الفتح البستي:

كل من يرتقي إليه بوهم
من جلال وقدرة وسناء
فالذي أبدع البرية أعلى
منه سبحان مبدع الأشياء

إنني أعد الباحثين في ذات الله مرضى! فنحن -على تفاهتنا- لا نعرف من نحن؟ فكيف نعرف الذات العليا؟

والأفهام البشرية في ذات الله تفاوتت تفاوتًا بعيدًا بين التجسيد والتجريد، فكتاب العهد القديم صوروا الله يبكي ويندم ويمشي ويقعد ويأكل ويشرب ويضرب إلى جانب ما له من صفات رفيعة.

من أغرب الصور أنه جلس مستلقيًا على قفاه متمددًا على الأرض واضعًا قدمًا فوق أخرى!

وفلاسفة اليونان المؤلهون -في مقدمتهم أرسطو- صوروا الله منزهًا عن كل شيء، حتى عن الصفات التي يعلم بها ويقدر بها، فهو عالم بذاته قادر بذاته وبالغوا في التجريد حتى كأن الله معنى لا ذات!!

فإذا تجاوزنا الأفهام البشرية إلى الوحي الأعلى، واستمعنا إلى القرآن الكريم، وجدنا أوصافًا تقرب معنى الألوهية إلى الحس الإنساني من غير تجسيد، وتبلغ بها كمالًا لا يتناهى من غير تجريد.





المسلم يقرأ قوله -تعالى- :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾

(ق : ١٦)

فيشعر بأن الله قريب منه، مطلع على دخيلته، ومع ذلك فهو يعلم أن الله مستوٍ على عرشه محيط من وراء خلقه، إنه يحس بالله دون أن يجسده، وينزه الله دون أن يفقده.

والإيمان الحقيقي أن تشعر بأن أصابع القدرة هي التي تحرك قلبك فيدق، ومعدتك فتهضم!

ماذا قلت؟ أصابع القدرة! هل للقدرة أصابع؟

وهنا ندخل في مبحث قديم، قتله المتقدمون تقعرًا وجدلا.. وانقسموا فيه فرقًا.. أما أنا فأمر به مر الكرام! وقد قلت في كتابي (مشكلات..) أنا مع السلف من غير تجسيم ومع الخلف من غير تعطيل[1].

لقد كان طبيعيًا أن تجيء في القرآن الكريم وفي السنة المطهرة جمل يتهيب العقل من الغوص في معناها مثل:

﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾

(البقرة: ١١٥)

﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾

(ص: ٧٥)

---

(١) سيوضح الشيخ معنى كلامه هذا بعد قليل، وهو ينقل عن الشيخ محمد عبد الله دراز رأيه في المسألة، فانتظره.







﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا ﴾

(الطور: ٤٨)

وقد نبه القرآن -منذ أنزل- إلى أن هناك آيات ينبغي التسليم بها، لأن حقيقتها فوق الفكر العادي، ومن الزيغ إكثار اللجاجة حولها.. لكن العناد والفراغ خلقا طوائف لا شغل لها إلا هذا اللغو، فكانت بلاء على الأمة ولا تزال!

إن اللغات على كثرتها من وضع البشر، وقد ألفوها ليعبروا بها عما يريدون من معان، وما يستخدمون من أدوات وشئون الألوهية فوق اللغات وفوق واضعيها، فإذا أفهمنا الله بلغاتنا شيئا يتصل بذاته العليا فعلى أسلوب التنزيل والتقريب.

وإذا كان عبد الله بن عباس يقول: إنه ليس في الدنيا من أوصاف الجنة إلا الأسماء، يعنى أن الحقائق لم ترها عين ولم تسمعها أذن، فكيف بالحديث عن رب العالم وخالق الجنة والنار؟

إن الرغبة في فهم حقيقة العرش وحملته! أو كيف يجيء الله في ظلل من الغمام، وكيف يجيء والملائكة صفًا صفًا، هذا كله نهم مردود، ومجازفةُ الذاهب فيها مفقود، ومن الخير أن يعرف العقل أين ينتج فيتحرك، وإلا سكن!! وقد كنا ونحن طلاب ندرس مذهبي السلف والخلف بهدوء، وبغتة لاحظت في أيامنا تحاقدًا بين ناس يتبعون السلف، وناس يتبعون الخلف، والأمة الإسلامية تكاد تسقط من الإعياء ومن ضربات الأعداء، فعجبت لانفجار الخصومة في هذا الوقت العصيب!



وقـد رأيت أن أثبت كلامًا للدكتور الشـيخ محمد عبد الله دراز في الموضوع لعلـه يخفف من هذا البلاء قال: «إن كلمة (اليد) في قوله تعالى:

﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾

(الفتح: ١٠)

أو كلمة (اليمين) في قوله:

﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾

(الزمر: ٦٧)

فسـرها العلمـاء المتأخـرون بأنهـا تعنـي القـدرة، وهو استعمال مجازي مشهور يقال: لا يد لي بكذا، أي لا قدرة لي عليه، أما السـلف الصالح فقد اشـتهر عنهم أنهم لا يؤولون هـذه الظواهـر بـل يأخذونها علـى الحقيقة والواقـع أنهم لا يمنعون أصل التأويل، ولكنهم يسـلكون في تأويلها مسلكا علميًـا متينًا يدل علـى علو كعبهم في الفهـم، وأنا أحب أن أفسره لكم لأنه ينفعكم في مواضع كثيرة».

قـال: «إنه لمـا دلت الأدلـة القاطعة علـى مخالفته تعالى للحـوادث، كان هـذا قرينة مانعة مـن إرادة المعنى الحقيقي المعـروف لنـا، فـإذن هي مصروفة عـن هذا الظاهـر، وكأنه يـراد بها معنـى مجازي، لكننا لـم تقم لنا قرينـة معينة على تحديـد هذا المعنى في أغلب الآيـات، هل المراد به القدرة، أم الإرادة، أم صفـة لا نعرفهـا؟ أم ليس هناك مجاز في المفرد يشـار به إلى صفة معينة وإنما هو كلام تمثيلي لتربية المهابة





في النفوس؟ كل ذلك سائغ في النظر، وليس ثم دليل يعين واحدا بخصوصه! لذلك وجب أن نقف حيث وقف بنا الدليل، فلنثبت له تعالى ما أراده من كلامه على الوجه الذي أراده مع تنزيهه عن المعنى الذي نألفه من صفات المخلوقين»!

قال: «ترون من هذا أن السلف يجوزون المعنى الذي ذهب إليه المتأخرون على أنه احتمال يحتمله الكلام، ولكنهم لا يلتزمونه التزامًا، لأن القول بالالتزام قول بغير دليل، من أجل ذلك سكتوا عن الخوض في تحديد معاني هذه الظواهر، واكتفوا بمعناها الإجمالي المصروف عن الظاهر.. أما طريق الخلف -وهو الخوض في تحديد التأويلات- فإنما ألجأهم إليه -والله أعلم- ظهور بدع المشبهة والمجسمة وغيرهم، فأرادوا سد باب الإبهام، ودفع الوساوس عن العوام، لكيلا يخرجوا عن دائرة التنزيه، ولا يحوموا حول التشبيه جزاهم الله خيرًا عما قصدوا، وغفر لهم تحديد ما حددوا».

قال: «وجملة القول أن طريق السلف هو الأليق بالعلماء، وطريق الخلف أصلح للعوام وأنصاف العوام»!!

وأرى أن كلام الشيخ الجليل فيه خير كثير، إنني في دروسي وعظاتي أتبع مذهب السلف، وعندما أجادل أهل الكتاب والماديين أنتفع بمباحث الخلف!

وفي كل الأحوال أرفض تجريد الفلاسفة، وتجسيم اليهود والنصارى، ومن تأثر بهؤلاء وأولئك من ضعاف التفكير.





٣٧- كيف تفسر ما ذكره القرآن من أن السماوات سبع والأرضين سبع مع حقائق العلم التي ترى أن الأرض واحدة والسماء فضاء؟

ذكرت في أكثر من كتاب أنه يستحيل أن يقع تناقض بين الدين والعلم، فإن العلم الصحيح وصف دقيق لجزء من ملكوت الله، والدين الحق توجيه آت من عند الله خالق هذا الملكوت، فكيف يحدث بينهما تكاذب؟

ما أثار التساؤل يرجع إلى أن الناس سمت شيئًا ما دينًا وليس بدين، أو سمت شيئًا ما علمًا وليس بعلم! وقد يكون مثارُ التساؤل خطأ شخصيًا من أحد المتكلمين في الدين أو أحد المتكلمين في العلم، وما أكثر أخطاء الفريقين!

قال لي أحد الناس: ثبت أنه لا حياة إلا في أرضنا، وأن الكواكب الأخرى ميتة لا حياة فيها! قلت: هذا التعميم خطأ، يمكن أن يقال: لا حياة بشرية، أو لا حياة نباتية، أو لا حياة لكائنات تعتمد على النفس وتعجز عن الوجود في درجات حرارة معينة!!

ومن قال: إن المخلوقات كلها على غرارنا؟

﴿ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴾

(الكهف: ٥١)




إنها جراءة أن يتحدث بعض الناس باسم العلم فينطق بالجهل ويبدو أن الأمر كما يقول العقاد: هناك مقلدون في كراهية التقليد!

قال: تعني أن هناك حياة في الكواكب والنجوم؟ قلت: لا أمنع أن هناك حيوات أخرى، وأستبعد أن تكون الأفلاك حجارة صمًا، موحشة تسبح في الفضاء، ليس على أديمها إلا الخراب!!

إن علماء الفلك متفقون -تقريبًا- على أن أرضنا تشبه حبة رمل في صحراء مترامية الأطراف! فهل هذه الحبة وحدها التي سعدت بالعقل -أو شقيت- وأما بقية الحبات فلا حراك ولا فكر ولا قيمة.. هذا بعيد!!

الذي أشعر به من كتابي[1] أن هذه الأفلاك مشحونة بكائنات راشدة، تسبح بحمد الله، وترثى لسكان الأرض، وتأسى لمآسيهم ومعاصيهم، وتسأل الله لهم المغفرة، قال تعالى:

﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾

(الشورى: ٥)

قال: تعني أن السماوات السبع هذه الأفلاك؟ قلت: لا

(١) يقصد القرآن الكريم.



أجزم بشـيء فـي هذا، ولا العلـم يجزم هو الآخر بشـيء عن حقيقـة الفضـاء، وطبقاته الذاهبـة مع الغيـوب، إن موضوع العلم هو المادة، وما تولد منها، فإذا اتصل الأمر بشـيء وراء المادة توقف بحثه، وبالتالي لا يذكر العلم شـيئا يوصف بأنه يناقض الدين.

الـذي أراه، أو أحـس بـه أننا نتحـرك في إطـار معين، إذا تجاوزنـاه إلى أعلى أو إلى أدنى لم نصـل إلى نهاية، في عالم العـدد نحن نتحـرك داخل مجموعـة من الأرقـام، فهل هناك نهايـة للعد التصاعدي، وهـل هناك نهاية للعـد التنازلي؟ لا حـدود هنا أو هنا، لا نهاية لمضاعفـات الأرقام من فوق، ولا لأجزائهـا من تحت!! وقد عشـنا داخل ما أتيـح لنا، وتركنا الفكر فيما وراء ذلك!

إن اللانهايـة يعرفهـا مـن لا أول لـه ولا آخـر، يعرفها الله وحده، ونحن نلقي إليه السلم فيما نعجز عنه ونستريح!!

لا ريب أن العلم المادي تقدم في عصرنا تقدمًا عظيمًا، ووصل إلى كشـوف باهرة، وأريد أن أقرر أنني استفدت من هذا العلم في دعم إيماني، وأنه زادني إجلالا لربي إن ظلال الأشـياء تمتد وتنكمش في أثناء النهار تبعًا لدوران الأرض حول نفسـها أمام الشـمس هكذا قرر العلمـاء، معنى هذا أن ظلـي أنا، وظـل داري، وظل عمود الهاتـف أمامه، هذه الظلال تتبع حركة طولها في الفضاء مئة وخمسـون مليون





كيلو متر هو مسافة ما بين الأرض والشمس !

قلت : ما أعظم الترابط على بعد الشقة -بين الأرض وأمها ، وما أدل طول الظلال وقصرها على عظمة مثبتها وماحيها ! وتلوت الآية الكريمة

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ (النحل :٤٨)

ثم تلوت ما بعدها

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾

(النحل : ٤٩ ، ٥٠)

إن الأسرة الشمسية التي تضم أرضنا تحتوي على نوع من الحياة فيه صلاحية معرفة الله ، والاستقامة على هداه ونحن البشر نقدر على ملاحظة آثار القدرة العليا فوق أرضنا المحدودة ، إن ظلال الأشجار المهتزة مع الريح تقصر حينا وتطول حينًا ، هي أثر إشعاع قادم من مسافة ١٥٠ مليون كيلو متر ضَبَطَتْه بالشبر والإصبع حكمة دقيقة ، بديهي أن تكون هذه الأشياء كلها ساجدة لمن أقامها وأدامها فهي طوعًا أو كرهًا تسير وفق مشيئته .

هل يمكن أن تتلاقي هذه الكائنات وأن يعرف بعضها بعضًا ؟ من يدري ؟ قد يقع ذلك





﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾

(الشورى: ٢٩)

هناك أمر مستيقن أن بني آدم مجموعون ليوم لا ريب فيه! وأن هناك جنًا سوف يحاسبون مثلنا لأنهم داخل دائرة التكليف، أما ما وراء ذلك فلا ندريه ولعله لا يعنينا.. المهم أن هناك سماوات معمورة بخلائق أخرى.. وفي الحديث «أَطَّت السماء وحق لها أن تئط ـ أي ضجت من ازدحامها» [مسند أحمد].

إن السماوات حق، ولا نعرف كنهها، والملائكة حق، ولا نعرف كنهها.. ولم نكلف بذلك، وليس في العلم ما ينافي ذلك!! بل إن الملائكة -كما أفاد الدين- موجودة بين الناس، وهي تؤدي وظائف منوطة بها في الإحياء والإماتة والمراقبة والتسجيل والإلهام والتخذيل!

العلم المادي لا يدري ذلك، وليس في حقائقه ما يناقضه، وآفة بعض المنتمين إلى هذا العلم أنهم يريدون بالمنطق المادي أن يفهموا ما وراء المادة، وإلا أنكروه وتلك الحماقة لا يقرها العقلاء!

أما الكلام عن الأرض والأرضين فالسؤال يشير إلى قوله تعالى:





﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾

(الطلاق : ١٢)

وقد تساءل المفسرون : هل المراد مثلهن في العدد ؟ أم مثلهن في الإِيجاد ؟

والعلماء الكونيون يرون أن الأرض ولداتها من المجموعة الشمسية كانت سديمًا ثم انفصلت أجزاؤه على النحو المعروف الآن ، أي إن أصل الخلق واحد .

وأرجح هذا ، فإن الأرض لم تجئ في القرآن الكريم إلا مفرده ، أما السماء فقد جمعت كثيرًا جدا .

وقد يكون المقصود من تعدد الأرضين كثرة طبقات الأرض ، أو ما طرأ على وجه الأرض من تغيرات ؟ والمعنى الأخير ساورني وأنا أقرأ في علم (الجيولوجيا) هذه العبارات «لعل أحدث فروع هذا العلم وأخطرها أثرًا (جيولوجية) الألواح المتحركة ! وهي التي أسفرت عنها دراسة انتقال موجات الزلازل ! فقد بينت إلى حد بعيد أن القشرة الأرضية التي يتراوح سمكها بين ٤٠ و ٦٠ ميلًا ، والتي كنا نظنها ثابتة ، تتكون من مجموعة من الألواح أو الدروع تغطي مسطح الأرض ، بما فيه قاع المحيط ، وهي في حركة دائمة بطيئة لا تتعدى نصف بوصة في العام الواحد !

وهي إما متباعدة أو متقاربة أو متحاكة جنبا إلى جنب ،





مما نتج عنه خلال الأحقاب الماضية، أن ما يعرف بالقطب كان صحراء، وما كان جنوبًا صار شمالًا، وأن الوضع الحالي للقارات والمحيطات غير مستمر! بل إن الصخور السطحية تغرق في باطن الأرض على خط التقاء الألواح المتقاربة، لتصهر مرة أخرى -مع شدة الضغط وارتفاع الحرارة- ثم تعود إلى سطح الأرض مع مقذوفات البراكين»(١).

وما دمنا نتحدث عن العلاقة بين الدين والعلم فلنفرق بين نوعين من المعرفة الدينية، هناك أحكام مقطوع بها في الدين كالإيمان بالله الواحد، والصلاة له، وانتظار لقائه للحساب! فهذه أحكام يستحيل -كما قلنا آنفا- أن يوجد في العلم ما يكذبها.

أما وجهات نظر الفقهاء في قضية ما وتفاوت تفسيرهم لنص من النصوص، فتلك أحكام ظنية يكتنفها الخطأ والصواب، ولا يُعتبر أحدها الرأي الرسمي للإسلام، إنه رأي صاحبه، وافق العلم المادي أم خالفه.

ومن هذا القبيل مرويات الآحاد التي لم تبلغ حد التواتر، فهي ظنية الثبوت، يعمل بها في الفروع ولا تنبني عليها عقائد.

والأمر في ميدان العلم كذلك، فهناك مقررات علمية

---

(١) الجيولوجيا والإنسان، للأستاذ درويش مصطفى الفار، مدير متحف قطر.





مستيقنة لم يوجد في الإِسلام قط ما يخالفها . . وهناك نظريات تشبه الاجتهاد الفقهي عندنا ، لا يمكن التعويل عليها أو التسليم المطلق بها ، وعسى أن ينقض البحث فيها اليوم ما أبرم بالأمس ، وأن يهدم الغد ما بناه اليوم .

هذه النظريات العائمة لا نترك من أجلها رأيًا لفقيه ، ولا حديث أحاد ! ولم ؟ وافتراض الصواب والخطأ واحد في الطرفين ؟

إننا سنستبقي ما لدينا على حاله حتى يُقطع الشكُّ باليقين !

ويؤسفنا أن الكهان في ميدان العلم أكثر من الكهان في ميدان الدين ، وأنهم يحاولون بجراءة ترويج نظريات مهتزة ، وإكسابها أمام القاصرين طابع اليقين .





٣٨- هل تم جمع القرآن بطريقة تدحض كل شك؟ وكيف تم جمعه؟

يوجد فارق ضخم بين تاريخ الإسلام، في نشأته الأولى -وتاريخ الدينين السابقين عليه، أعني اليهودية والنصرانية.. إن الإسلام تحول على عجل إلى دولة قائمة لها سلطات وطيدة، أما النصرانية فلم تقم لها دولة إلا خلال القرن الرابع لوجودها، وإذا كانت اليهودية قد صار لها جيش ووجود سياسي على عهد مبكر فإن كيانها قد تلاشى كل التلاشي بعد قليل، وضاعت مقدساتها كلها.

إن هذا الفارق كبير بين الإسلام وغيره يفسر كيف بقي كتاب الإسلام مصونًا!، وكيف تعرضت كتب أخرى للعوادي الماحقة.

ظل النبي ﷺ يتلقى القرآن الكريم في مكة المكرمة ثلاث عشرة سنة، كان كل حرف ينزل يعيه الحفظة في قلوبهم ويسجله الكتبة في صحفهم، وكان هذا القرآن معروفا للعدو والصديق! أما المؤمنون فهم يستمدون منه النور الذي يمشون به، وأما الكافرون فقد شد انتباههم كتاب يهاجم آلهتهم وينقض مواريثهم ويثير دهشتهم!

حاولوا أولًا التهوين من شأنه وقالوا:

﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ (الأنفال: ٣١)







ثم تواصوا بافتعال الضجيج لدى سماعه :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴾

(فصلت : ٢٦)

ولعمري إن هذه لهي الهزيمة النفسية الموجعة، أن تخاف سماع كلام معين لأنه يغلبك !

ثم جاء التحدي البالغ لهم :

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ ﴾

(الإسراء : ٨٨)

إن التحدي يتوجه إلى قوم سمعوا القرآن وعرفوه عن خبرة، وأدركوا أثر عجزهم عن مضاهاته !

المهم أن القرآن خلال فترة الضعف في تاريخ الإسلام، كان متميزًا معروفًا لا يلتبس بغيره، ولا يلحقه نقص أو ازدياد.

وانتقل نبي القرآن إلى المدينة، وهناك باشر سلطات رئيس الدولة من حكم بين الناس، وعقد للمعاهدات، وتوجيه للمصالح العامة وقيادة أو بعث للجيوش هنا وهناك !

وظل القرآن ينزل عشر سنين أخرى، الكتبة يسجلون بإشراف الرسول عليهم، والحفظة يختزنون العلم في صدورهم، وما يكتب ويحفظ تعاد تلاوته في الصلوات الخمس، في قيام الليل، في مجالس التلاوة، في خطب الجمعة، الأفراد والجماعات مقبلة على قراءة الكتاب العزيز !





وكانت مكانة المرء تعظم بمقدار إقباله على القرآن، وكان النبي يرعى هذه المكانة حتى عند دفن الشهداء، فهو يقدم في اللحد أكثرهم أخذًا للقرآن!

حكومة قائمة ترى القرآن دستورها ومنارها، فهي تحفظه وتحافظ عليه، وترسل به الوفود إلى الآفاق، من أين يتطرق الريب إلى كتاب هذه بيئته الأولى؟

أمة تعبد ربها بفقه كتابه وتجويد حروفه، ودولة بكل أجهزتها تصون وتحمي، ما عرفت الدنيا من بدء الخليقة مثل هذا الصون لكتاب من الكتب.

ومضت دولة النبوة، ثم جاءت دولة الخلافة الراشدة، ورجالها هم السابقون الأولون في اعتناق الإسلام وحفظ آياته وكتابة مصاحفه!

وظلت هذه الدولة ثلاثين عامًا شَرَّق فيها الإسلام وغَرَّب، وأُثر عن جيوشها أنها كانت لا ينتهي لها هدير بالتلاوة آناء الليل وأطراف النهار!

ومضت دولة الخلافة، وجاءت دول أخرى كثيرة فماذا حدث خلالها للقرآن؟

كان تواتره، يمتد ليشمل أجيالًا أخرى، وكانت مصاحفه تملأ المساجد والعواصم والدور والقصور.. وصدق الله العظيم

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

(الحجر: ٩)





سـأضرب مثلا لشـرح ما أقصد -وإن كنت على وجل من ضربه واسـتحياء- لقد وضعت الولايات المتحدة لها دستورًا بعد حرب الاسـتقلال، تضافـر الأمريكيون حكومة وشـعبًا على دراسـته وتنفيذه، فهـل يمكن القول بأن هذا الدسـتور حُرِّف وشُـوِّه؟ وكذلك فعل الاتحاد السـوفيتي! فهل يمكن القول بأن ما وضعه الثوار الحمر تغير وتبدل؟

إنني لا أشـبه القرآن الكريم بهذه الوثائق -معاذ الله- فإن القـرآن لم يجئ إلينا من مصدر واحد هو الكتابة، بل المصدر الأول لتلقيـه قبل أن يكتب هو الحفـظ في الصدور، وقراءته عن ظهر قلب! وإنما لَفَتُّ النظر إلى أن الدولة حين تقوم على دعامة ما فإنها سوف تحمي دعامتها، وتفرضها على الزمن.

وتحوُّل الإسلام في عهد مؤسسه إلى دولة مكينة السلطان جعـل الكتاب المعجز يحظى بالحياطة الشـعبية والرسـمية جميعا، وجعل كل حرف منه بين العيون!

أكذلـك كانت الكتب السـابقة؟ لا.. إننا نؤمـن بالتوراة النازلة على موسى كما علمنا الله:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾

(المائدة: ٤٤)

ونؤمن بالإنجيل النازل على عيسى كما علمنا الله:

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ﴾

(المائدة: ٤٦)





فماذا حدث للوحي السابق؟ أغار أعداء بني إسرائيل عليهم وهدموا الهيكل ومزقوا صحائف التوراة ولم يبقوا لهم أثرًا يتمسكون به.. فلما تحرروا من أسرهم، بعد أمد طويل، تقدم لكتابة التوراة من ذاكرته من تقدم فإذا الصحائف الجديدة ملأى بالغرائب!

من بضع سنين تقدم للقضاء الإسرائيلي جندي يشكو الضابط الذي يرأسه بأنه اغتصب زوجته، وتحدث محامي الضابط فقال: إن موكله مشهور بالإقدام والشجاعة، ومثله ينبغي التجاوز عنه كما تجاوز الله عن داود الذي اغتصب امرأة (أوريا) ولم يكتف بالزنى! بل أوصى بقتل الزوج المفجوع، فقتل في الميدان بحيلة مرسومة!!

إن هذا الدفاع كان مفاجأة للناس، لكنه لم يكن مفاجأة للقضاة، فهم يعرفون القصة في كتابهم (المقدس)، ولا أذكر بما حكموا في هذه القضية! وإنما غاظني أن نبيا كريما يتهم بالزنى والقتل، ويراد جعل مسلكه أسوة!

وداود رجل بريء، والصحائف التي لوثت سمعته وسمعة غيره من المرسلين هي التي يجب أن تحاكم!! فما أكثر ما بها من افتراء على الله والمرسلين!!

والواقع أن القرآن الكريم هو السجل الجامع للعقيدة التي بلَّغها المرسلون، وتواصوا كابرًا عن كابر أَخْذَ الناس بها وتنشئتهم عليها.

وقد حصنه القدر من التحريف والتغيير، فتعدت القداسة






الموضوع إلى الشكل، والمعنى إلى الحروف، فأصبح ضبط الألفاظ نفسها دينًا، وقراءتها عبادة، وذلك حتى لا يعتري الكتاب الخاتم ما اعترى الكتب من قبل!

كان النبي ﷺ -وهو رئيس الدولة- يجعل خطب الجمعة تلاوة لسور القرآن، في أغلب الأحيان، وكذلك كان الخلفاء الراشدون، ومن الطرائف أن عمر خطب بسورة النحل يوما، فلما بلغ آية السجدة نزل من المنبر فسجد وسجد الناس معه، ثم خطب في الجمعة التي بعدها بالسورة نفسها دون أن ينزل ويسجد فلما سئل في ذلك قال: أمرنا أن نسجد إذا نشاء! يعني أن سجدة التلاوة ليست فريضة!

وهاجم المشركون يوما رسول الله وهو يدعو إلى الله الواحد، وتدخل أبو بكر يذودهم عنه وهو يقول:

﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾

(غافر: ٢٨)

وهذا بعض آية من سورة غافر!

وصلى عمر الفجر بالناس يقرأ سورة يوسف، فلما بلغ قوله تعالى على لسان يعقوب:

﴿ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾

(يوسف: ٨٤)

سمع نشيجه بالبكاء.





لقد كان القرآن، وما زال، شغل الأمة الشاغل، واهتمامها الدائم، وهي تسمع نبيها يقول: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» [صحيح البخاري] ويقول: «لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار، ورجل آتاه الله مالا وسلطه على هلكته في الحق» [صحيح البخاري]

إن الناس يقرءون القرآن الآن، كما نزل به أمين الوحي على خاتم الرسل، لا تغيير في حرف ولا في شكل.

ومنذ أربعة عشر قرنًا لم يتغير شيء من هذه الثلاثة، الشمس هي الشمس، والقمر هو القمر، والقرآن هو القرآن!!





٣٩- ما الفارق بين القرآن، والحديث القدسي، والحديث النبوي؟

القـرآن الكريم هو كلام الله تبارك وتعالى، المسـجل بين دفتي المصحف الشريف، وهو المعجزة التي أيد الله بها نبيه محمـدًا ﷺ، وتحدى مكذبيه! وهو منقول بالتواتر، ومتعبد بتلاوته، ومعصوم إلى آخر الدهر من أي تحريف.

وكان العرب يودون لو جاءتهم خوارق حسية بدل تحديهم بكتاب يخاطب الألباب والأفئدة، وجاء على ألسنتهم:

﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾

(الرعد: ٣١)

لا، هـذا القرآن تسـير به الجبـال وتقطع بـه الخرافات، ويكلم به الأحياء!

وقـد وقعت الخوارق التي يطلبـون فما آمن منهم أحد لأن العناد أعماهم.

ولعل أفضل ما يوصف به القرآن ما جاء عن الحارث الأعور قال: «مررت في المسجد فإذا الناس يخوضون في الأحاديث، فدخلـت علـى علـيٍّ -رضي الله عنـه- فأخبرته فقـال: أو قد فعلوهـا؟ قلت: نعـم. قال: أما إني سـمعت رسـول الله ﷺ يقـول: أمـا إنها سـتكون فتنة، قلـت: فما المخـرج منها يا رسول الله؟، قال: كتاب الله -تعالى-، فيه نبأ ما قبلكم وخبر مـا بعدكم، وحكم مـا بينكم. هو الفصل ليـس بالهزل، من





تركه من جبار قصمه الله تعالى، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله تعالى. وهو حبل الله المتين. وهو الذكر الحكيم. وهو الصراط المستقيم. وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة: ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا:

﴿إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾

(الجن: ١، ٢)

من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم» [شرح السنة للبغوي].

والحديث يفيد أن دراسة القرآن تسبق دراسة السنة أو بتعبير آخر: لن يكون فقيهًا في السنة قصيرُ الباع في فقه القرآن الكريم، والكتاب والسنة معًا دعامتا الدين.

أما الحديث القدسي فهو كلام الله -تعالى- ولكنه لا يحتوي الخصائص القرآنية، فليس معجزًا في عبارته ولا وقع به التحدي، ثم إنه لا يتعبد بتلاوته، فلا تصح به صلاة.. وأخيرًا لم يصل إلينا بطريق التواتر القطعي، فالأحاديث القدسية قد يكون فيها الصحيح والحسن والضعيف، بل قد يكون فيها الموضوع كحديث «عبدي أطعني أجعلك ربانيًا تقول للشيء كن فيكون»، فإنه لا أصل له..!



ويرى البعض أن الحديث القدسي من كلام رسول الله ﷺ، عبر فيه الرسول عن مراد الله تعالى، وكأن لسان الحال يقول كذا، والجمهور على الرأي الأول، وأنه يشبه الوحي النازل في صحف إبراهيم وموسى، أي كلام إلهي غير معجز ولم نكلف بتلاوة ألفاظه والتعبد بها كما تقرر ذلك للقرآن الكريم..!

من نماذج الحديث القدسي الصحيح ما وراه مسلم عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله فيما يروي عن ربه -عز وجل- أنه قال:

«يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا.. يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم. يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم! يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم. يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفروني أغفر لكم. يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني! يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل ما نقص ذلك من ملكي شيئًا.. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في



صعيد واحد وسألوني فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل في البحر ! يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرًا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه »[صحيح مسلم] .

ومن نماذج الحديث القدسي الحسن السند ما رواه أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : يقول الله تعالى :

« يا بن آدم ، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي ! ! يا بن آدم ، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي ! ! يا بن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة ! ! »[سنن الترمذي] .

في هذا الحديث جرعة منعشة للإرادة التي غلبها اليأس من طول ما انهزمت في الحرب السجال بين الخير والشر ، أو بين العصمة والسقوط ، والمراد أن تفيق لتستأنف سيرها إلى الله ، وتلزم الصراط المستقيم ، فالحديث هنا يشبه قوله تعالى :

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ ﴾

(الزمر : ٥٣ ، ٥٤)






وليس الحديث تهوينًا من مغبة الانحراف كما يتصور الجهال .

وشيء آخر ، نلفت البصائر إليه أن آفة الكثيرين من العصاة هي عبادة النفس ! أعني أنهم يعبدون أنفسهم من دون الله ، أو يشركون أنفسهم مع الله ، ويقدمون هواهم على دينه .

ومن برئ من هذه الأثرة الغبية ، ووقف أمام الله ، أو لقيه هاضمًا نفسه ، بادي الفاقة إليه وحده ، فهو أهل لأن يحظى بمغفرته .

وذلك فِي نظري السر في رفض الله سبحانه لأي شيء يعتبر شريكا له ، إن أي شيء يعكر حقيقة التوحيد ، مهما كان أمره ، بشرًا أو حجرًا أو مالًا أو جاهًا هو صدع هائل في الإيمان ! !

أما الحديث النبوي فهو ما ينسب إلى رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو حكم أو تقرير ، فإن الرسول الكريم إمام الأمة ، وأسوتها الحسنة ، وله عليها حق الطاعة ، كما بين الله ذلك في كتابه

﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

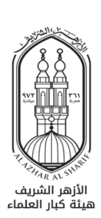
(آل عمران : ١٣٢)

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾

(النساء : ٨٠)

وبعض الناس لا يفقه معنى الرسالة ولا مكانة الرسول ﷺ ، ويحسب أن القرآن وحده كافٍ في هداية الناس دون بيان من





صاحبه، ودون تطبيق عملي يوضح مراد الله من عباده، وهذا خطأ بالغ، فإن القرآن ليس نقطة عثرنا عليها في فلاة، ولا كتابًا نظريًا يستطيع كل امرئ أن يفسره على هواه ضاربًا عرض الحائط بتوجيهات من نزل عليه وكلف بتبليغه!!

والحق أن تجاهل السنة النبوية جهل فاضح بقدر أعظم رجل في تاريخ الإنسانية الطويل.

إن محمدًا -لو لم يكن رسولًا- لكان لنفاسة معدنه، وطهر سريرته، ومجادة نفسه، أهلًا لأن يسمع نصحه! فكيف وهو بالرسالة التي اختير لها -قد اتصل بالملأ الأعلى، وأضحى معصومًا في كل ما يصدر عنه

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾

(النجم: ٣)

إنه عندما يتكلم يبلغ عن الله! ويصدر عن فؤاد موصول بنور السماوات والأرض، وكما قال الله له:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

(الشورى: ٥٢)

ونختار من الحكمة النبوية هذا الحديث الشريف، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال، قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله تعالى يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: رجل على فضل ماء بفلاة يمنعه ابن



السبيل، يقول الله له يوم القيامة: اليوم أمنعك فضلي كما منعت فضل ما لم تعمل يداك..! ورجل بايع رجلًا بسلعة بعد العصر فحلف له بالله تعالى: لقد أخذها بكذا وكذا فصدقه وأخذها وهو على غير ذلك. ورجل بايع إمامًا لا يبايعه إلا لدنيا، فإن أعطاه منها ما يريد وفى له! وإن لم يعطه لم يف له» [رواه مسلم]

وجمهور المسلمين على أن طاعة الرسول من طاعة الله سبحانه، وأن من قرر عصيان رسول الله، ورفض ما أمر به أو نهى عنه، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه.

والواقع أن من يترك حديثًا ما من المرويات التي بلغتنا، لا يفعل ذلك تمردًا على صاحب الرسالة، وإنما شكا منه في صدق ما نسب إليه، أو في المعنى المراد منه..!

بيد أن السنة الشريفة ليست كما يتصور البله، كلامًا جمع بطريق الجزاف أو سجل دون وعي!! لا.. إن جميع الضوابط التي يمكن حشدها لضمان الصدق والدقة قد اتخذها علماء المسلمين.

ثم إن السنة العملية، وصلت إلينا بطريق التواتر، الذي وصل به القرآن نفسه، فلا مجال لإنكار صلاة -أو زكاة- من الصلوات المكتوبة، أو الزكوات المحسوبة.



٤٠ - ماذا لو تعارض الحديث مع القرآن الكريم؟

لا يتعارض حديث مع كتاب الله أبدًا وما يبدو حينا من تعارض هو من سوء الفهم لا من طبيعة الواقع، وذلك مثل حديث «لن يدخل أحدٌ الجنةَ بعمله»، وقوله تعالى:

﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾

(النحل: ٣٢)

الفهم الصحيح للموضوع كله، أنه لا بد من عمل ينال به المرء رضا ربه، ويستحق رحمته، فالجنة ليست للكسالى والأراذل، بيد أن العمل المقبول هو المقرون بالتواضع لله، وإنكار الذات، والقلق من أن يرفض رب العالمين العمل المتقرب به لأن عيوبه لا تخفى عليه، أو لأنه دون حقه، أو لأي سبب آخر.

فمن تقدم بعمل وهو شامخ الأنف، ليس في حسابه إلا أنه قدم العمل المطلوب للجنة، وعلى الله أن يسلم له المفاتيح ليدخلها بعدما امتلكها بعمله!! هذا المغرور لا يقبل منه شيء، ولا مكان له في الجنة.

أما من جاء خاشعًا خفيض الجناح، شاعرًا بالانكسار لأنه لم يقدم ما الله أهل له! فإنه يدخل الجنة بعمله!

والدلائل على هذا المعنى كثيرة، وما يعقلها إلا العالمون!

إن السنة بحر متلاطم الأمواج، وما يستطيع فهمها على وجهها إلا فقيه يدرك ملابسات كل قول، والمراد الحق





منــه ! فــإن النبــي -عليه الصلاة والســلام- ظل يكلــم الناس ثلاثًا وعشــرين ســنة، اختلفت فيها الأحوال، وتباين الأفراد وتشعبت القضايا، ووضْعُ كل حديث بإزاء المقصود منه، أو معرفة النطاق الذي يصح فيه، هو عمل الفقهاء، وهو عمل لا مناص منه وإلا حرفنا الكلم عن مواضعه !

والمحــزن أن ناسًــا لا فقه لهم تكلفوا ما لا يحســنون من قراءة للســنة، وإفتاء بهاء، فأســاءوا ولم يحســنوا، وهم الآن حجر عثرة في طريق الدعوة الإسلامية !

بعضهم فهم أن الإســلام يشن حرب العدوان ويأخذ الناس على غرة دون دعوة إلى دين !

وبعضهــم فهم أن مســتقبل الأمة إلى ضيــاع لأنه لا يجيء يــوم إلا والذي يليه شــر منــه ! وبعضهم فهــم أن الغنى مضاد للتقوى، وأن الفقر أخو اليقين وطريق الآخرة !

وبعضهــم فهــم أن القدر تحويل قســري للمــرء من طريق النجــاة إلى طريــق الهلاك أو العكس، لأن العلم الإلهي ســبق بذلك ! !

وسبب هذا الخبط اشتغال الدهماء بالسنة، دون أن يكون لديهــم رصيد من الحكمــة القرآنيــة ! ودون أن يكون لديهم ذوق أدبــي بأســاليب الأدب العربــي، ودون أن يكون لديهم بصر بأغوار النفس الإنسانية، وأحوال المجتمعات البشرية، ودون دراســة عميقة للسيرة الشــريفة، وما حفل به ربع قرن



من أحداث جسام وشئون وشجون ! ودون تفريق بين ما هو عادي وما هو عبادي.

فالسنة عندهم الأكل على الأرض، لا على مائدة، وتنظيف الفم بالسواك لا بالفرشاة والاستنجاء بالأحجار لا بالأوراق، وإرخاء ذيل العمامة على الأقفية، وإيثار الأبيض من الملابس الفضفاضة، وضرب النقاب على الوجه حتما، وذلك بالنسبة إلى النساء !

والواقع أن العادات البدوية غدت سنة نبوية، ولما كان العرب يؤخرون المرأة في المكانة فقد منعت باسم الإسلام من التردد على المساجد، ومن تلقي العلم في المدارس، ومن جهاد الكلمة، أي جهاد الأمر والنهي ! ومن أي مشاركة في جهاد عسكري ... إلخ.

والعارفون بالسنة المطهرة يدركون بطلان هذه التقاليد، ومنافاتها للكتاب والسنة، ومع ذلك فإن الدهماء المتحدثين في الإسلام يقاومون الحق بعصبية، ويرمون غيرهم بالانطلاق مع المدنية الحديثة.

والذي أراه أن السنة ركن الإسلام بعد القرآن الكريم، ولكن لا يشتغل بتفاصيلها إلا الفقهاء، ومن يعنيهم الأمر من الولاة والقضاة والدعاة، والمتخصصين في أي مجال يحتاج إلى الإلمام بهذه التفاصيل.

أما رجل الشارع أو الشخص العادي، فإن أربعين حديثا تكفيه وتغنيه.






وعلى أية حـال ما يجوز لجاهل بالقـرآن أن يحدث الناس أو يتصـدر للفتـوى في شـئونهم ! لقد رأيت أغيلمة تشـتغل بالسـنة ، انتهى أمرها بالهجرة إلى اليمن لعلها تبدأ من هناك نهضة إسـلامية ! ! نهضة بعيدة عن فقه الحياة والاسـتمكان مـن الدنيا ! لعل صالحي الجن سـوف يمدونهم بالمتفجرات في ميادين الحرب ، أو بالغذاء والكسـاء والدواء في ميادين السلام . . والجنون فنون ! !

نحـن نسـتمد معاقـد الإيمـان وأركان الإسلام وأعمـدة الأخلاق والمعاملات من الكتاب والسنة معا ، والسنة العملية التي وردت بطريق القطع تفسير مستيقن للقرآن نفسه ، وعلى ضـوء هذا نصلي الخمس ، ونحـج البيت ، ونعرف الكيفيات لهـذه الفروض من السـنة العملية ، وهناك أحـكام كثيرة في الفـروع أجمع عليهـا الفقهاء ، ولا يخرج علـى هذا الإجماع مؤمـن ، أما مـا كان موضع خلاف ، فالأمر فيه على الاتسـاع ، يعتنق أي مسلم ما شاء من وجهات النظر العلمية دون حرج .

قال الفقهاء : والسـنة المشـهورة تخصص عموم القرآن ، فالأولاد مثلا يرثون أباهم بنص الآية :

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ



وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

(النساء: ١١)

وقد جاءت السنة بأن القاتل لا يرث أباه الذي قتله كما جاءت السنة بأن الكافر لا يرث أباه المؤمن.

وقد تقيد السنة نصًا جاء في القرآن الكريم مطلقًا، فالآية تجعل الأم من الرضاع محرمة كالأم نفسها، وكذلك الأخوات قال -تعالى-:

﴿ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ ﴾

(النساء: ٢٣)

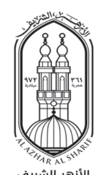
وجاء في السنة أن ذلك ليس على إطلاقه، فلا تحرم رضعة ولا رضعتان، ويرى عدد من الأئمة أن أقل من خمس رضعات لا يفيد التحريم!!

وبقي أبو حنيفة ومالك على القول بالتحريم المطلق!

والذي أميل إليه أن الأمومة لا تتكون إلا من رضاع كثير، فإذا ورد في السنة أن الحد الأدنى لذلك خمس رضعات، أو عشر كما يرى البعض فهو قيد جدير بالرعاية!

وقال -تعالى-:





﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾

(البقرة: ١٧٩)

ولكن السنة بينت أنه لا يقتص للفرع من الأصل، فإذا قتل أب ابنه عوقب بغير القتل! والسبب أن هذا القتل شذوذ عن سنن الآباء الذين قد يفتدون أبناءهم بحياتهم، ويحيون كادحين ليوفروا لهم السعادة!

لا بد أن هذا القتل لا تصحبه نية الإجرام، وأنه وقع تحت ضغط جنوني طارئ! ويرى مالك أنه لا قصاص إلا إذا كشفت التحقيقات أن الأب رجل متوحش مجرد من مشاعر الحنو، فكّر ودبر لغرض خسيس! ويرى غيره إلغاء القصاص مطلقا إمضاء للسنة! وهذا التخصيص أو التقييد هو تفسير ممن تلقى الوحي للمراد الإلهي، ومن أحق من نبي القرآن بتفسيره ولا يسمى معارضة للقرآن الكريم، بل هو بيان وتوضيح وتستقل السنة بإنشاء أحكام إلى جوار ما شرع في القرآن، وأي ضير في هذا!! قالوا: مثل المسح على الخفين بدل شريعة الغسل! ومثل تحريم الذهب والحرير على الرجال ... إلخ.

والتحقيق أن تشريعات السنة كلها داخلة في نطاق القرآن الكريم، ودلالته القريبة والبعيدة، وعندي أن المسح على الخفين ليس من إنشاء السنة بل هو معنى القراءة الثابتة:





﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾ (المائدة: ٦)

بكسر اللام عطفًا على ما قبلها، والتعبير مجازي كما يقول علماء البلاغة، أطلق الحال وأراد المحل!! أما تحريم الذهب والفضة فسدًا لأبواب الترف! وأظن ما ورد من تحريم استعمال الجرس فلحماية شعيرة الأذان، وإلا فلا مانع من استعمال الجرس للإنذار أو الساعات المنبهة، أو في الهاتف أو في أعناق الدواب مثلًا.

ولفقهاء الحنفية كلام في هذا الموضوع أورده هنا لأني ميال إليه، إنهم يرون أن الفرض والمحرم لا بد في إثباتهما من نص قاطع، ومعنى هذا أن خبر الواحد لا ينهض على إثبات حرمة أو إثبات فرضية.

ويعني هذا أن الأحكام الشرعية تزيد اثنين فوق ما قرره الأئمة الآخرون!

الأئمة يقولون: الواجب ما يثاب على فعله ويعاقب على تركه، والمحرم بالعكس ما يعاقب على فعله ويثاب على تركه، والمندوب ما يثاب على فعله ولا يعاقب على تركه، والمكروه ما يثاب على تركه ولا يعاقب على فعله، والمباح ما استوى فيه طرفا الفعل والترك.



ويرى فقهاء الحنفية أن ما أمر به حديث آحاد لا يرتفع إلى درجة الفرض، ويسمى لديهم واجبًا يؤمر بفعله ويلام على تركه، وما نهى عنه حديث آحاد لا يرتفع إلى درجة المحرم بل يؤمر بتركه ويلام على فعله، ويأخذ حكم الكراهة التحريمية، وهم يطلقون هذا الحكم على ما انفردت السنة بحظره كلبس الحرير والذهب للرجال مثلًا.

لا فريضة عندهم إلا بنص قطعي، ولا تحريم إلا بنص قطعي، وأخبار الآحاد عند الجمهور لا تفيد إلا الظن العلمي، وشذ بعض الحنابلة فروى عن إمامه أنها تفيد القطع، وهذا فهم مردود!





٤١ - هل الصورة التي رسمها القرآن لخلق آدم حقيقية أم رمزية؟ وما معنى الحديث «خلق الله آدم على صورته»؟!

ظاهر أن الذي أوحى بهذا السؤال ما كتبه (داروين) عن أصل الأنواع، وما أعلنه من رأي في قضية النشوء والارتقاء.

ومع أن النظرية منقوضة من جوانب كثيرة، ومع أن هناك من علماء الأحياء من رفضها جملة وتفصيلًا، فإن أعدادًا من الناس لا تزال تروج لها، بل إن هذه النظرية لا تزال تدرس في بلادنا وكأنها حقيقة علمية!

والسبب في ذلك أن سدنة المذاهب وسماسرة الإلحاد الزاحف من الشرق والغرب يريدون إقناعنا بأننا من الأرض وحدها تخلقنا، وأن الروح الذي نسمو به ونسود بقية الأحياء لم يجئ من الله! فهم لا يعترفون به!! إنه ظاهرة أرضية بحتة! وأنا رجل مسلم، أشعر بأن نسبي السماوي أزكى من نسبى الأرضي وأحق بالتقديم، وأنني ابن آدم الذي خلقه الله من تراب الأرض، ولو استبقاه على هذا الطور من الإيجاد ما كان له شأن يذكر!

إن آدم اكتسب مكانته وكرامته بعد أن نفخ الله فيه من روحه، بهذه النفخة العلوية أضحى كائنًا جديرًا بأن تسجد






له الملائكة وتحيي في وضعه الجديد الإبداع الإلهي وحسن التقويم وعبقرية العقل وسناء المواهب ! !

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾

(الحجر : ٢٨ ، ٢٩)

لولا هذه النفخة لكنت نوعًا من الأنواع التي تحدث (داروين) عنها ، ولكنت من أسرة متفاوتة الأفراد من زواحف وسباع ، ومن طيور وأنعام ! !

إنني أومن بأن الله خلقني ونفخ في من روحه ، وإذا كان أبي آدم صور من طين مباشرة ، فأنا من سلالته على طول المدى ، وقد قال الله في وفي إخوتي من أبناء آدم

﴿ ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾

(السجدة : ٧ - ٩)

والنفخة التي سرت في أوصالي وجعلتني خلقا آخر تستحق التأمل العميق ، إنني الآن واحد من خمسة آلاف مليون بشر ،





هل نحن خمسة آلاف مليون نسخة من كتاب واحد ! كلا ، إنه كما تختلف بصمات أصابعنا ، وملامح وجوهنا تختلف مواهبنا الفكرية ، ومشاعرنا النفسية .

لكل قلب همومه وأشواقه ، ولكل عقل مجرى تفكير وقدرة استنباط ، أي إن النفخة هاهنا !

فإذ كان ذلك في عصر واحد فماذا عن نهر الحياة الدافق من بدء الخليقة ؟ وماذا عن أجيال البشر الذين يتوارثون عمارة هذه الأرض ما شاء الله ؟

إن الله العظيم الذي أشرف على كل جنين ، وتابع أطواره حتى اكتمل ، بيد أن هذه الحياة الإنسانية المذهلة شيء صغير بالنسبة إلى ما خلق من عوالم لا ندريها ! أليس القائل :

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(غافر : ٥٧)

إن الشبه واحد بين أسماع الناس وأبصارهم أي بين مظاهر الحياة الإنسانية العادية ، ولعل ذلك ما جعل شوقي يقول :

يا نفس مثل الشمس أنت أشعة
في عامر ، وأشعة في بلقع
فإذا طوى الله النهار تراجعت
شتى الأشعة والتقت في المرجع





إن الغروب الذي يطوي الأشعة في رأي العين فيبدأ الليل، كالموت الذي يسترد السر الإلهي فتنتهي الحياة.

لكن الشمس تغرب من ناحية لتطلع في أخرى، والنفس تموت بيننا، أو تخفى بيننا لتستأنف وجودها في عالم آخر!

وكان النبي ﷺ يشير إلى هذا المعنى عندما يقول في كل صباح، أصبحنا وأصبح الملك لله والحمد لله لا شريك له لا إله إلا هو وإليه النشور، وعندما يقول في كل مساء، أمسينا وأمسى الملك لله والحمد لله لا شريك له لا إله إلا هو وإليه المصير.

ومع البعض تبدأ الخصائص الإلهية في كل نفخة تقدم حسابها الخاص بها، وكل امرئ حسابه على قدر ما أعطي من مواهب وإمكانات

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾

(الطلاق: ٧)

﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾

(النجم: ٣٢)

وعلى أية حال فإني قد أدري أن جسمي يتكون من تراب هذه الأرض، لكني لن أصدق أبدًا أن الحب والبغض والرجاء واليأس والذكاء والغباء والذكر والنسيان معان نبتت مع العشب والكلأ، وجاءتني من تراب هذه الأرض!





ثم شيء آخر يجعلني أحس بأبي آدم، وبأنه حقيقة لا يليها تطاول العصور، ذاك هو وحدة الشعور والفكر بيني وبينه، إن الله أسكنه دارًا حسنة وسط حديقة يانعة، فيها ما يغني ويكفي وقال له:

﴿ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾

(البقرة: ٣٥)

بيد أن الإنسان يريد اكتشاف المجهول ولو كان تافهًا، يريد الحصول على الممنوع وإن كان مؤذيًا! وفي الحلال الطيب سعة، أو في دائرة المباح مقنع!

وقف آدم مع امرأته يجأران بهذا الدعاء:

﴿ رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾

(الأعراف: ٢٣)

وهبطا إلى الأرض، وأرسل الله سبحانه من يتلو علينا خبرهما لنتعظ، إن قصة الإنسانية في حياة آدم هي قصة الإنسانية في حياة نبيه، خطيئة ومتاب ... فما هي قصة الإنسانية عند الملاحدة؟ جراثيم وجدت من غير موجد، ظلت تتعارك ليبقى الأقوى، وظل الأقوياء يتعاركون حتى





استطاع الإنسـان الغلب على غيره من الدواب وأن يسودها، فبلغ الإنسـان بجدارة قمة المملكة الحيوانية ! وأمسى سيدا للفيلة والحمير والأرانب والسباع ! لقد ساد إخوانه في سباق شريف، إن القصة بهذا السياق أكذوبة حقيرة.

ومـع أن (داروين) قال: إنه لا ينكـر الألوهية ! فإن كلامه مضطـرب متهافت، وهو منته آخر الأمـر إلى قطع الصلة بين الإنسان، ورب الأرض والسماء.

أمـا حديـث أن الله خلـق آدم على صورته فقـد قبله أغلب المحدثين وفسـروا الصـورة بالصفة ! يعنـون أن الله لما نفخ من روحه في الكيان المادي لآدم أصبح آدم بهذه النفخة حيًا، قادرًا، مريدًا، سميعًا، بصيرًا، متكلمًا ... إلخ

وظاهر من تكوين آدم أن العقل الذي أضاء في دماغه علَّمه الكثيـر ممـا يعمر الكـون، وبصَّره مما تعجـز الملائكة عن إدراكه:

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

(البقرة: ٣١ ، ٣٢)

وقد انطلق بنو آدم فـي الأرض بمواهبهم العليا وغرائزهم





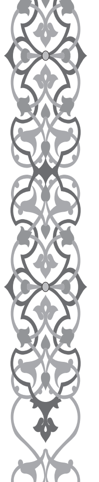


الدنيـا، وتعرضوا لامتحانات هائلـة، ولا يزالون في ضوضاء المعركة وبأسائها، إلى يوم الفصل ! !

ومـن العلماء من يقول: خلق آدم علـى صورته، أي صورة آدم نفسـها فلم يعرض لها تغيير عـن الأصل، ولن يعرض في المستقبل، أي لا تطور !

ورأيـت لبعض الكتـاب طعنًا في الحديث ! يقـول: إن أبا هريـرة نقـل هـذه الجملة عـن كعـب الأحبار، وهـو يهودي الأصـل، والجملـة موجـودة فـي سـفر التكوين أول أسـفار التوراة، فانخدع بها أبو هريرة ورواها حديثًا !

والذي أراه أن وجود الجملة في التوراة لا يعني أنها موضع ريبة، وأن المعنى الصحيح لهـا قائم ومقبول، وليس للاتهام دليل.







٤٢- هل يؤخذ القرآن بنصه؟ أم على أساس الظروف التي نزلت فيها آياته؟

يندر أن يكون المرء شريرًا من جميع نواحيه، أندر من ذلك أن يكون -مع غلبة الشر عليه- شريرًا في جميع الأوقات.

السمة الغالبة أن يخلط الإنسان عملًا صالحا وآخر سيئًا، وأن تمر به فترات صحو تبدد غيومه بين الحين والحين.

والخوف من الإنسان الذي يصحو ويغيم، ويكبو ويقوم، أن يفلسف انحرافه الذي يعروه ليجعله مسلكًا عاديًا أو أمرًا لا يجوز التنديد به والتوبيخ عليه، وإن جاز لضرورة فلتكن الكلمات خفيفة الوقع، وتوطئة للعتبى!

استمعت إلى اللص البدوي الذي يسوغ سرقته قائلًا:

ولا أسأل الجبسَ اللئيم بعيَره
وبعرانُ ربي في البلاد كثير!

وقلت: هذا رجل يكره أن يقبل البعير صدقة، ويكره أن يأخذه عارية؛ لأنه يكره أعطية اللئام، لماذا تكون يده السفلى! فليذهب إلى الصحراء أو إلى البيوت وليسرق أي بعير! ولا جميل لأحد!!

إن السرقة في منطقه استجابة لرغبة نفسية طبيعية!





قلـت : لو حمل هذا الرجل إجـازة علمية في القانون ، فلن يعاقب سـارقًا ، ولو حُدِّث عن حَدِّ السـرقة لأرعد وأزبد وهاج وماج وقال . . لا عودة إلى الوراء ، لا نريد وحشية !

ولو أن إنسانًا عاش في بيئة اعتادت السطو على الأعراض ، أو تسلل إليها الشذوذ ، فأصاب وأصيب منه ، واعتدى واعتدي عليه ، فإنه سـينظر إلى الحياة من خلال جوانبها الأخرى التي لم يتندس فيها ، ويحاول تضخيمها والتعويل عليها وحدها ، والنظر إلى المباذل التي تلوثه على أنها هنات ينبغي التجاوز عنها وعدم الوقوف عندها .

وهذا ومثله لو ملكوا سـلطة التشـريع لجعلـوا العلاقات الجنسـية كلأً مباحـا -فـي حـدود التراضي طبعـا- كما هو الشأن في القوانين الأوروبية !

إنـني أفهـم أن يقع الخطـأ ، لكني لا أفهـم أن يتحول إلى قانون !

وقد يسـتكبر إنسـان ! لكن ما معنى أن يعتذر عن إبليس ؟ ويفلسف تطاوله على الله تبارك وتعالى !

وقد ينزلق امرؤ فـي الوحل ! المفروض أن ينهض ويصلح شأنه ويغسـل درنه ! أما أن يتغزل في الطين ، ويرمي به وجوه السائرين ، فهذه دناءة غليظة !

يؤسفني أن ناسًا كثيرين بدل أن يصلحوا أنفسهم يريدون





إفسـاد القانون، وذلك هو السـر وراء المحـاولات المجنونة لتعطيل الشـرائع السـماوية وهي محاولات نجحت بين أهل الكتاب الذين سبقونا، فأمسى الوحي حبرًا على ورق.

ويـراد فـي كبوة الإسـلام المعاصـر أن يفعل المسـلمون مثلمـا يفعل غيرهم، فتوضع شـرائع الإسـلام على الرف، أو يُحْكَم على بعضها بالإعدام تمهيدا لإنفاذ الحكم فيها كلها.

والأمر لا يحتاج إلى الحيلة، فلنقل: إننا نتجاوز النص إلى روح النـص، أو لنقل إن الظروف التي نزل فيها النص قد طرأ عليها تغيير، فليتغير النص تبعًا لذلك!!

ما أسـهل تطويق الإسـلام بهذه الطريقة! وجعله اسـمًا لا حقيقة له، أو جعله شكلًا لا موضوع له!

وقـد بدأ سماسـرة الاسـتعمار تنفيـذ الخطة، فسـمعنا من يقـول: إن الضرائـب تغني عن الزكاة! ومن يقـول: إن الصلاة والصيـام يعطـلان الإنتاج، فـلا حرج من التنـازل عنهما! ومن يقـول: إنما حرم لحم الخنزير لقـذارة مراعيه قديمًا وقد زالت الآن هـذه العلـة! ومـن يقـول: إن العربدة في الطريق هي سـر تحريم الخمر، فمن يتناول منها قليلًا في بيته فلا حرج ... إلخ

وهكـذا، تنهدُّ أركان الدين وتضيع معالم الحلال والحرام باسـم (روح النص) و (تغير الظـروف) ويمنع انتفاع الناس بالإسـلام، بل يمنع دخولها فيه! وينفسـح المجال بعد ذلك







للإلحاد، أو للأديان الخرافية!! ومعروف أن تعطيل شرائع الحدود والقصاص، كان تمهيدًا للقضاء على العبادات والعقائد والتاريخ والتراث واللغة، وسائر مقومات الأمة!

ونحن إذ نوصد الباب في وجه الاستعمار الثقافي نفتح الباب على مصراعيه أمام أولي الألباب، ليحسنوا فقه الإسلام وعرضه، ونذكر بدءا أننا لسنا من المتعصبين للفقه الظاهري، بل على العكس نحن مع الجمهور على أن القياس من أدلة الشريعة، ومع أغلب الفقهاء في رعاية المصلحة المرسلة، واحترام جملة القواعد التي تحكم الفكر التشريعي عندنا.

والحق أن علم أصول الفقه علم جليل القدر، وهو -كما قال الشيخ مصطفى عبد الرازق- أدل على خصائصنا من الفلسفة الإسلامية.

لكن علم الأصول مجمد في كتبه، والمسيرة في القرون المتأخرة تكاد تكون متخلية عنه! والعالم الإسلامي تحكمه بعض الآراء الاجتهادية التي لقيت حظوة عند فريق من الناس، ثم قامت عليها تقاليد راسخة، ثم اعتبرت هذه التقاليد هي الإسلام بعينه، واعتبر تركها خروجًا على الدين، وربما وصف تاركوها بالارتداد!!

إذا كان ذلك ما دعا إلى الكلام عن النص وروح النص، والظروف وتغاير الظروف فللموضوع وجه آخر، وإن لم



يحسن أصحابه الكلام فيه، أو تصوير شكاتهم كما يجب!

أعرف مجتمعات حبست فيها ألوف الفتيات لأن الكفء لم يتقدم! مَنْ الكفء المرتقب؟ أستاذ في العلوم؟ محام قدير؟ أديب رائع؟ تاجر ناجح؟ شاب تزينة التقوى وخدمة المثل؟ لا، لا كفاءة وراء هذه الخلال كلها! المهم النسب الفارع، والمكانة المدعومة بالمال الكثير!

وقضية الكفاءة، يسندها فقه معين!، لكن هناك فقها إسلاميا آخر يقول: إن الزنجي المسلم كفء لبنت الخليفة الهاشمي، لا، هذا فقه مهمل! لماذا لا يكون الإِهمال نصيب الاجتهاد الأول؟ هذا ما حدث!

فهل الدين من حيث هو عقيدة وشريعة -يُزدرَى بسبب هذا الذي حدث؟

إنه لا شكاة من نص معين، لا شكاة من أمر أو نهي عن محرم، الشكاة من فهم ضيِّق لأحد النصوص أو من واجب لم يرد به أمر، أو من تحريم لا يسنده نهي!! وعلاج هذا الخلل ميسور، بل هو عمل المجددين والمصلحين والدعاة الفاقهين.

قال لي أحد الناس: إن إعطاء الأنثى نصف نصيب الذكر موضع ضيق من المثقفين في الغرب! وهم يرون المساواة بين الجنسين، وإهمال هذا النص!



قلت : إن هذا النص جزء من خطة اجتماعية كبرى تجعل نفقة الفتاة مسئولية الأسرة لا مسئوليتها الشخصية ، وقد ساوى الغرب بين الذكر والأنثى في طلب الرزق ، وخرجت الفتاة للكدح من سن السادسة عشرة ، فماذا حدث ؟

إن الغربيين يجب أن يخجلوا من الأدران الجنسية التي تلف بلادهم وتلطخها بالعار لتكليف المرأة بالتكسب منذ صباها الباكر ، والزعم بأن الجنسين سواء في الغنم والغرم .

وأنا لا أزال حائرًا في تعليل هذا الرضا العام بانتهاك الأعراض ، وإشباع الرغبات ، وتقديم الأجساد في المراقص والحدائق !

وعلى أية حال ، الرجل ملزم بالإنفاق على زوجته إن كان زوجًا ، وعلى ابنته إن كان أبًا ، ولا تكلف الفتاة بالتعرض للارتزاق كي تعيش ، فإنها ستفقد نفسها في مآزق كثيرة !

ولها يقينًا أن تعمل وتكسب في أوضاع متخيرة مضبوطة لها وليس عليها ! ومع ذلك فما ناله الرجل من زيادة في ميراثه سيرجع لها بصورة أو بأخرى .

وسوف يجني الغرب نتائج فسوقه ! ولولا أن أتباع الرسالة الخاتمة فقدوا القدرة على التصدي لقيادة الإنسانية ، لما بقي الغرب في مكانته تلك ، مع بغيه وبغائه ! ! إنه باق لعدم وجود البديل وحسب !







القرآن الكريم قد أحكم الله آياته، ويسر فهمها وذكراها، وما تشابه من آيات القرآن فلا علاقة له بالأحكام العملية، والمسالك الفردية والاجتماعية!

وليست هناك آية قط يمكن الحكم عليها بوقف التنفيذ، أو تعطيل عملها، تصريحًا أو تلميحًا.

وإذا كنا نعيب على بعض الماجنين تبرمهم بأحكام الحدود والقصاص، فهناك عيب أشد على نفر من المنتمين إلى الدين، أنهم أطاعوا ما استسهلوا وتركوا ما استوعروا.

إنهم صلوا لأن الصلاة عمل لا يجر وراءه المتاعب.. أما قوله تعالى:

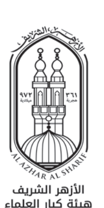
﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ﴾

(المائدة: ٨)

فأمر فوق طاقة الجبناء الحريصين على منافعهم ومناصبهم، هنا يمكن اللجوء إلى تأويل النصوص وتغاير الظروف، وجعل العجز عقلًا، والجبن حكمة!

والبعد عن الصراط المستقيم يستوي، على أن يكون الانحراف فيه ذات اليمين أو ذات اليسار.





٤٣ - ما حاجة الإنسان إلى الإيمان باليوم الآخر؟ وما أثر إنكاره على السلوك الإنساني؟

إذا طال الكلام عن الدار الآخرة فلا يأمن أحد ! فإن توارث الذهول عنها أمات الشعور بها ، حتى قال الحسن البصري عن الموت -وهو أول مراحلها- ما رأيت حقًا أشبه بباطل من الموت !

وكل حقيقة يجب أن نعترف بها خصوصًا عندما تتصل هذه الحقيقة بمستقبلنا ، وعندما يكون الشاطئ عميقًا ، ثم تترك غرًا لا يحسن السباحة ينزل فيه ، فإنك قاتله ! !

قد نستغني عن بعض الحقائق وإن كان الجهل بها عيبًا ، ما دامت لا تمسنا ، أما إذا ارتبط كياننا المادي والأدبي بشيء ، ثم غفلنا عنه فهنا الطامة ! !

إنني أتخيل فجيعة الجاحد عندما يحس فجأة أنه مكتمل الحواس أمام غيب تحول إلى شهادة أمام أمر كان يهزأ منه فإذا هو جدار يصدع دماغه ! لقد وقف وجهًا لوجه أمام ما كان ينكره بقوة

﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴾ (الفجر : ٢٢ - ٢٤)






ليت ! وهل ينفع شيئًا ليت ؟ إنه أضاع ماضيه في الحياة الأولى سدى، وها هو ذا يحصد ما زرع ؟ ما فكر قط في هذا اليوم ولا أعد له عدة، ومع التأوه والندامة يقول : يا ليتني قدمت لحياتي، وهيهات.

وهناك شخص آخر، كان في دنيا الناس يذكر الله ويغالب النسيان، ويستعد لمواجهة عاصفة فهو يترك فراشه منطلقًا إلى المسجد، يغمض عينيه عن المفاتن المبذولة، يستعف عن المحرمات وإن كثرت حولها المغريات.

إنه -يوم الحساب- يتلقى نبأ نجاحه فيصيح جذلانا، مسمعًا كل إنسان

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾

(الحاقة : ١٩- ٢٤)

إنها فرصة العمر، بل فرصة الخلود ! شتان بين مصير ومصير !

وأثر الإيمان باليوم الآخر عميق في التربية النفسية والاجتماعية، إنه يتحمل حينا ليظفر بالراحة بعد حين ! كما





قيل لأعرابي : تصوم في هذا اليوم الحار؟ قال : أصومه ليوم أحر منه !

وتعليل النفس بالآمال عون على الرضا بالمتاعب، وحبسها على ما تكره لتنال ما تحب ! وكما قال الشاعر :

مُنى إن تكن حقا تكن أسعد المنى
وإلا فقد عشنا بها زمنا رغدا ! ! !

وهذا الاستثناء بالنسبة إلى الآخرة مرفوض، فإِن الدار الآخرة أحق وأثبت من الدار الأولى، على نحو ما ذكر العارفون : الناس نيام فإِذا ماتوا انتبهوا، ومن هنا صح وصفها بما يدل على زيادة الحس في قوله تعالى :

﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت : ٦٤)

والحيوان كالفيضان مصدر يدل على سعة المعنى.

وقد كثرت في القرآن الكريم المواطن التي تذكر فيها الآخرة لتصحيح السلوك في هذه الدنيا أو تزكيته وترقيته، فعندما ضاقت زوجات النبي ﷺ بمعيشته الخشنة قيل لهن : الأمر على غير ما ألفتن قديمًا، لقد جئتن من بيوت حافلة بالسعة والمتاع إلى بيت لا سرف فيه ولا ترف !

إنه بيت الكفاح والخشونة ! بين التلاوة والتهجد ! لا بد لرب هذا البيت أن يكون قدوة للمضطهدين والمحاصرين



ومن صودرت ثرواتهم وفقدوا طمأنينتهم لنصرة الإسلام !

من طلب متعة الحياة فلا مكان له هنا ، ومن رنا إلى الآخرة وسعى لها سعيها فليبق موطنًا نفسه على حياة ناشفة !

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

(الأحزاب : ٢٨ ، ٢٩)

وجمهور الناس قد يحس غصة وهو يرى المرتشين والمفسدين أو الملحدين المجرمين يمرحون في طول البلاد وعرضها ، عليهم شارة النعمة وأمارة القوة.

وقد يكون ذلك مبعث فتنة لأهل التقى والعفاف ، لكن الله سبحانه يمحو ذلك محوًا عندما يقول :

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾

(آل عمران : ١٩٦ - ١٩٨)

ومن مشاهد القيامة مشهد يتكرر في القرآن كثيرًا ،





ليحارب ظاهرة مؤذية تسود من زمان فالتبعة في الفساد والإفساد مقسمة على الفريقين قسمة عادلة، لأن هؤلاء يوحون وأولئك ينفذون، الرءوس والأذناب شركاء في اقتراف الجرائم، وفتنة المستضعفين وإثارة الفتن، ومن هنا جمعهم مصير واحد.

وتدبر قوله تعالى يصف هذا المصير، ويذكر ما يقع فيه من حوار!

﴿ هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡۖ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ ﴾

(ص: ٥٥ - ٦١)

إن الكبراء عندما يرون الأذناب يلحقون بهم في دار الجحيم تسؤهم اللقيا، ويصيحون مستنكرين مرآهم! لطالما هشوا لهم في الدنيا وسارعوا إلى لقائهم، أما اليوم فإن الفريقين يتبادلان السخط، والتشاؤم وعدم الترحيب!!

ويتذكر الفريقان أنهم كانوا يتفقون على إهانة المؤمنين،



ونعتهم بأقبح النعوت، ويتظاهرون على اضطهادهم وأذاهم! أين هم الآن؟

وقالوا:

﴿ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾

(ص: ٦٢ - ٦٤)

تسجيل هذا المنظر الذي سيقع حتما، والتعجيل بعرضه الآن، فيه طمأنة لجمهور المؤمنين الذي أرهقه الاستضعاف والاستهزاء! أما الكافرون فإنهم لا يعونه ولا يصدقونه!

ومنظر آخر جدير بالتأمل، يقوم بعض أهل الجنة بسياحة قصيرة يستكشفون فيها مصاير من كانوا يعرفونهم قديما من أهل الضلال والكفران!

﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾

(الصافات: ٥١ - ٥٣)

هذا القرين يظن المؤمنين رجعيين يصدقون الخرافات، ويتبعون الترهات، فهو يقول لصاحبه: أتصدق أننا بعد فنائنا نبعث ونجزى؟



ويشرف الرجل المؤمن على قرينه القديم ليراه وسط أهوال:

﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾

(الصافات: ٥٤ - ٥٧)

وعبارة ﴿إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ تشعر المؤمنين في يوم الناس هذا بضرورة الثبات على الحق، لأن التهوين فيه طريق السقوط والضياع، كما تشعرهم بقية الكلام بفضل الله عليهم، إذ شرح صدورهم لهذا واستدامهم عليه!

وفي دنيانا الحاضرة، ينفر المنافقون من أهل الإخلاص واليقين، ويهجرون مجالسهم، ويبعدون عنهم إذا جمعتهم المصادفات في طريق، ذلك لأن قلوبهم مع الكفر وأحزابه، ما يأنسون إلا بهم.. بيد أن الحال تتغير تغيرًا عميقًا في الدار الآخرة.

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾

(الحديد: ١٣)






إن القرآن الكريم يربي الناس بيوم الحساب حين يذكره وحين يكرره، ويعالج عللهم بما يسوق من صوره!

إنه يذكره لإصلاح الدنيا لا لهدمها، ولتعليق الهمم بالأبقى والأجدى لا بالسراب الخادع.

أما الماديون الذين يزحمون الآن مشارق الأرض ومغاربها، فما يعرفون إلا هذا السراب، وما يعولون إلا على أيامهم فوقه وما يرمقون السماء بنظرة رجاء، وما يعطفهم على ربهم ولاء ولا عرفان.

مررت يومًا بأحد شوارع القاهرة، فرأيت عربة قد نفق الحمار الذي يجرها، وتجاوزت صاحبها الحزين على ضحيته، ونظرت إلى الدابة الميتة عند أقدامه وقلت في نفسي: انتهى أمرها.

***





٤٤ - ما أثر الإيمان على الأخلاق والسلوك والضمير، على ضوء ما يحدث في الدول المتقدمة التي تأخذ بالعقل ونتائج العلوم فقط؟

لا نستطيع إنكار المدى الكبير الذي بلغته الحضارة الحديثة في اكتشاف أسرار الكون ! إنها حضارة ذكية العقل واسعة المعرفة، قد طوعت ما بلغته إلى تقدم صناعي باهر طفر بالإنسانية طفرة رحيبة ورهيبة، في جميع المجالات المدنية والعسكرية.

ولكن هناك إحساسًا عامًا بأن هذا التقدم المادي لم يواكبه تقدم روحي، وأن إنسان العصر الحديث لا يختلف كثيرًا عن إنسان العصر الأول في غرائزه وشهواته !

وإذا كانت ثمة فروق ففي الوسائل لا في البواعث والغايات، بل لقد قيل في إنسان العصر الحاضر : إن عضلاته أكبر من عقله.

والواقع أن الإنسان يتضاعف شره عندما يكون حاد الذكاء حقير الخلق، وطالما رددنا أن الإسلام عقل يرفض الخرافة، وقلب يكره الرذيلة !

إن الكمال الحقيقي امتداد ونضج في جميع الملكات الإنسانية، وهذا التوازن أساس لابد منه لقيام مجتمع رشيد، وحضارة يانعة الثمار، مديدة الظلال، فهل الحضارة الحديثة -







بعد تلك المقررات ـ جديرة بالخلود ؟ أو هي أرجح من غيرها في موازنة منصفة ؟ الحق : لا !

فالرجل الأبيض ـ قائد هذه الحضارة ورائدها ـ إنسان طافح الأنانية ـ يشده إلى منافعه ألف رباط ـ وقبل أن نشرح شرهه المسعور ، واستعلاءه على غيره ، نذكر أحد مظاهر الحضارة الإسلامية القديمة !

فالعرب الفاتحون قدموا الإسلام للأعاجم ، ونقلوهم به من الظلمة إلى النور ، وبعد ردح من الزمان كان هؤلاء يصلون وراء الأتقياء من شتى الأجناس ، ويتلقون عنهم العلوم الدينية ، دون غضاضة أو كبرياء .

فالبخاري هو المحدث الأول ، وأبو حنيفة الفقيه الأول ، والحسن البصري المربي الأول ، وسيبويه اللغوي الأول . . إلخ . ولم يشعر المصريون بأي ضيق من أن يقودهم « قطز » في معركته الهائلة ضد التتار بعين جالوت ، وما خامرهم حرج في أن يقودهم صلاح الدين ضد الصليبيين في حطين .

إن الإسلام محا النعرات الجنسية في أغلب الميادين ، وربط الناس بمثلهم العالية وحدها !

أما الجنس الأبيض ، وطلائعه الغازية والمكتشفة ، فقد كانوا يعبدون أنفسهم ، ويقدسون مصالحهم ولا تحكمهم إلا شرعة الغاب !

اكتشف الإنجليز استراليا فماذا فعلوا بسكانها ؟ شرعوا يطاردونهم من مكان إلى آخر حتى حصدوا جمهرتهم ،





وأخبرني صديق قادم من استراليا أن البيض ييسرون أردأ الخمور لهؤلاء السكان الأصليين حتى يقضوا عليهم القضاء الأخير، وتبقى استراليا للمغيرين المسلحين بالتقدم العلمي والصناعي المجردين من كل رحمة وإيثار!

أكان سكان أمريكا الأصليون أسعد حظًا من استراليا؟ لقد تتبعتهم حرب الإبادة من بلد إلى بلد، وكان المكتشف الذي يسيل ريقه للذهب ينظر، فإذا وجد هنديًا أحمر على رأسه تاج من ذهب، قطع الرأس، وعاد بالتاج!

قد يقال: كان ذلك في الأيام الأولى لاكتشاف العالم الجديد وقد ارتقت اليوم البشرية وضاقت بما كان يفعله المستعمرون الأولون، واستنكرته!

ونجيب أن الاستهانة بالأجناس الأخرى كانت - وما زالت - ديدن الرجل الأبيض - وعندما أعوزه الانتصار السريع ضد اليابان ألقى قنبلتين مبيدتين على هيروشيما وناجزاكي فقتل نصف مليون إنسان بين طفل وامرأة وشيخ وشاب، ولا ريب أن عُشر هؤلاء الهلكى فقط هو الذي كان يمكن أن يجند في الحرب!!

المأساة أن هؤلاء (المتحضرين) ارتقوا علميًا وهبطوا خلقيا، وأنهم عبيد لذَّاتهم العاجلة، وأن الفكرة عن يوم الدينونة غامضة أو معدومة لديهم، إنهم لم يسمعوا يوما من يقول لهم:




﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ ﴾

(إبراهيم: ٤٢-٤٤)

إن الإنسان يتحول إلى وحش كاسر عندما ينسى الله واليوم الآخر، لاسيما إذا كان هو واضع القانون ومطبقه! إن القانون يومئذ يحرس الأقوياء ويجتاح الضعفاء، وقد رأينا كيف يباد الشعب الفلسطيني ويمحى وجوده فوق أرضه، ويجاء بألوف مؤلفة من اليهود لتحيا فوق أنقاضه، والقانون الدولي مكمم الفم، لأن ملاك القوة يريدون ذلك، وأجهزة الدعاية قديرة على إبطال الحق وإحقاق الباطل!

إن الغرائز المهتاجة، والعادات السيئة، والموروثات الرديئة تهزم الحق في دنيا الناس، وقد نظرت إلى جموع المستشرقين - وهم قوم ذوو ثقافة واسعة - لفتهم ضغائن غبية ضد «محمد» ﷺ، فأذاعوا عنه أنه كبني جنسه محب للنساء.

إن هؤلاء المستشرقين قرءوا في العهد القديم أن سليمان جمع في عصمته ألفا من النساء، سبع مئة من الحرائر وثلاث



مئة من الإِماء، فهل كان لدى محمد عشر ما عنده؟ لا ! نصف العشر ؟ لا ! ربع العشر ؟ لا !

ومع ذلك فسليمان نبي حكيم، ومحمد دون ذلك ! !

ونشيد الأنشاد الذي لسليمان تسمع فيه صيحات الباحث عن الحبيب المجهول أو المعلوم، أما قرآن محمد فليس في طوله وعرضه إلا جؤار يدفع البشر إلى ربهم، ويذكر بيوم لقائه، ومع ذلك فمحمد لا يوحى إليه، والأشواق وراء الحبيب المنشود هي الوحي المعصوم ! ما قيمة العلم إذا لم يكن معه إنصاف ولا عدالة؟ إنني أمقت الذكاء الخبيث، والثقافة المسفة، وعندي أن امرأة حصانًا غافلة أشرف من مومس عبقرية، وأن رجلًا ساذجًا يعرف ربه أشرف من خبير في الذرة يعبد نفسه؟ !

وقد أفهم ما يعنيه الرسول الكريم فيما روي عنه: «النار أسرع إلى فسقة القراء منها إلى عبدة الأصنام ! فيقولون: يبدأ بنا قبل عبدة الوثن؟ ! فيقال لهم: ليس من يعلم كمن يجهل»(١).

والحضارة الغربية، كما قلنا آنفًا، اتسع علمها وضاق أدبها، أو طالت ثقافتها وقصرت تربيتها، فهي الآن تصنع أجيالًا لا تعرف إلا الحياة ليومها فوق هذا التراب وتؤمن أنها لن تحيا مرة أخرى أبدًا، ومن هنا غلب عليها هذا السعار في

---

(١) الحديث رواه المنذري في الترغيب والترهيب، وقال: هو على غرابته له شاهد من الصحيح.





اقتناص الموجود، والركض وراء المفقود، والحقد على من وجد، والازدراء على من فقد!

إنها لا تؤمن بالله واليوم الآخر! ورجال الدين مشغولون بسخائمهم القديمة!

وما يدور في ذهنهم تعاون عام لإبقاء الأرض موصولة بالسماء، فهل هذا تقدم علمي أم نجاح للغرائز الهابطة والأغراض الدنيا؟

على أن القرون الأولى لم تخل من علم أثارت به الأرض.. وزينت به الحياة! والمنكور هو انعدام التوازن في أية حضارة بين جوانبها المادية والأدبية، لقد بنى المصريون الأهرام، والبناء في ذاته ليس عيبًا، وإنما العيب أن تهلك أسرة في سبيل بناء مقبرة الملك! وبنت عاد قصورًا شامخة، وأبراجًا عالية، فإذا اصطدم برغبتها أحد سحقته، وأغراها جبروتها بحرب الإبادة، فكان من قصص القرآن عنهم

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾

(الشعراء: ١٢٨- ١٣١)

ورفض هؤلاء وأولئك تقوى الله، وسماع الناصح الأمين فماذا كانت العقبى؟

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ





يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾

(الفجر :٦- ١٤)

إن هـذه المدنيـات البائدة قامت على علم لـه يومئذ وفاء بحاجات الناس، ولقد اغتروا بهذا العلم، وحسـبوا أنه يسبق بهم ولو أثقلهم الهوى، وهيهات،

﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

(غافر : ٨٣)

إن العلـم مهما تقدم لا يغني عن الإيمـان، والإيمان الذي نحترمه هو الذي يعانق العقل وتزدان به الحياة.



٤٥- لماذا كانت المذاهب الفقهية المعمول بها أربعة؟ وما ضرورتها؟

أئمة الفقه الإِسلامي المشهورون أربعة، وقد كانوا قديمًا ضعف ذلك مرة أو مرتين، بيد أن الذين رسخت مكانتهم وخلد ذكرهم أولئك الأربعة الكبار: أبو حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل!

أكان ذلك لمصادفات عارضة؟ أم تم وفق سنة البقاء للأصلح؟ لا تعنيني الإِجابة وإنما يعنيني القول بأن أولئك الرجال الأربعة كانوا قممًا في التقوى والمعرفة، والنصح للأمة، وإقصاء مشاعر الرغبة والرهبة مع كل حاكم مهما امتدت دولته وعظمت سلطته.

والخلاف الفقهي أول أمره كان علامة صحة، ولا ضير من بقائه إلى آخر الدهر ما دام لا يعدو حدوده! وحدوده هي دائرة الأعمال الفرعية.

أما أركان الدين ومعالم الإِيمان، ودعائم الأخلاق، ومعاقد الشريعة، فهي موضع اتفاق بين خاصة المسلمين وعامتهم.

والذي ضخم الخلاف الفقهي، وشغل الناس به على نحو مستهجن أمران:

أولهما: جهل الغوغاء، وفرح الواحد منهم بحكم عرفه، ومغالاته به كما يقول الناس في مصر: «الكعكة في يد اليتيم عجب»؛ ولذلك ترى هؤلاء يقدمون فقه المضمضة





والاستنشاق على رعاية العهود والأمانات ! وهذا ضلال مبين .

والأمر الثاني : صمت الألسنة عن الكلام في الفقه الإداري والدستوري والدولي، وضمانات الشورى والمال العام، وخوض أهل البطالة بالثرثرة المملة فيما وراء ذلك حتى جعل جماهير تهتاج لقضية (وضع اليدين) في أثناء الصلاة ولا تتحرك بقوة لضرب الاستعمار المغير، ومحو الأسباب التي جلبته .

ولو تعاون المسلمون على تنفيذ ما اتفقوا عليه - وهو لب الدين وجمهرة تعاليمه - لكان الخلاف فيما وراءه شيئًا لطيفًا وطريفًا، ومصدر تراحم لا خصام .

والأئمة الأربعة كما أسلفنا القول رجال كبار، لكنهم ليسوا معصومين، ولا فرض أحدهم نفسه على الأمة، ولا كلفنا شرعًا باتباع واحد بعينه منهم .

وإنما نحترمهم، لقول رسول الله ﷺ : «ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه»(١) .

وأحب أن أعرض نماذج متناثرة للخلاف الفقهي تومئ إلى طبيعته وعلته، أما التأصيل العلمي لأسباب الخلاف فقد شرح في أماكن أخرى .

هل القاذف الكذاب نقبل شهادته بعدما تتم توبته ؟ . . . من الأئمة من يرفض شهادته أبدًا وإن تاب، ومنهم من يقبلها بعد توبته .

---

(١) رواه أبو داود والبخاري في الأدب المفرد، ورواه الترمذي بلفظ مختلف.





وأصل المسألة تفسير قوله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ ﴾

(النور : ٤ ، ٥)

قال البعض : الاستثناء وقع من الوصف بالفسق ، وبقي الحرمان من الشهادة على التأبيد . . وقال آخرون : بل الاستثناء يلحق الجملتين معًا ، وتقبل شهادته . ليكن هذا أو ذاك ، فلا حَجر على فهم !

والتائبون من جريمة قطع الطريق ، إذا استسلموا قبل إلقاء القبض عليهم ، تُقبَل توبتهم وتسقط عقوبتهم لقوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ (المائدة : ٣٤) فهل يسقط الحد عمن ارتكب جريمة السرقة ، أو الزنى إذا تاب ؟

من الفقهاء من أعمل القياس ، واستشهد بالسنة ، وأوقف الحد ، جاء عن أنس بن مالك : كنت عند النبي ﷺ فجاءه رجل فقال : يا رسول الله ، إني أصبتُ حدًا فأقِمْه عليَّ -قال : ولم يسأل عنه- فحضرت الصلاة ، فصلَّى مع النبي ﷺ ، فلما قضى النبي الصلاة قام إليه الرجل ، فقال : يا رسول الله ، إني أصبت حدًا فأقم فيَّ كتابَ الله ! ! قال : « أليس قد صليت معنا ؟ قال : بلى ! قال : فإن الله -عز وجل- قد غفر لك ذنبك » ! .



وهنـاك فقهـاء آخرون يرون ضـرورة إقامة الحـد رافضين القياس ومئوليـن الحديث الوارد .. لكلٍّ رأيُه ولا تثريب على أحد .. !

وفـي فقـه الأسـرة نقـرأ شـريعة الخلـع ! ولا أدري لماذا أهملـت ؟ ولمـاذا كان القضـاء يأمر رجـال الشـرطة باقتياد الزوجة الكارهة إلى بيت زوجها لتسلمه جسدها !

وهـل الخلع طلاق أو فسـخ لعقـد الزوجيـة ؟ خلاف بين الفقهـاء، وظاهـر القـرآن أن الخلع فسـخ ؛ لأن الله سـبحانه يقول :

﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ ﴾

(البقرة : ٢٢٩)

ثم يقول :

﴿ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ ﴾

(البقرة : ٢٢٩)

وفسر التسريح بعد ذلك بقوله :

﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ ﴾

(البقرة : ٢٣٠)

وقد توسط الخلع أحكام الطلاق بقوله سبحانه :

﴿ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ ﴾

(البقرة : ٢٢٩)

فالظاهـر أن رد المرأة للمهـر الذي قبضته عودٌ في العقد ! ويحكم القضاء بالفسخ .






ويرى آخرون أن الخلع طلاق بائن للحديث الوارد للإشهاد عليه، والحق أني حائر في ذلك مع قوله تعالى:

﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾

(الطلاق : ٢)

كيف يكون الإشهاد نافلة مع هذه التوكيدات؟ ويغلب على ظني أن التقاليد التي ضامت المرأة من قديم لها دخل كبير في هذا الاضطراب.

إن التحقيق العلمي يوجب احترام شريعة الخلع التي أهملت، كما يوجب ضرورة الإشهاد على الطلاق.

ونترك فقه الأسرة إلى طرف من فقه العبادات، إنني قضيت ردحًا من الزمان أعمل في المساجد، ورأيت مظاهر الخلاف بين الأئمة الأربعة: هذا يقنت في الفجر وذاك يصمت! هذا يصلي نافلة قبل المغرب وذاك يأبى! هذا يحيِّي المسجد في أثناء الخطبة وذاك يجلس! هذا يقرأ فاتحة الكتاب وراء الإمام وهذا ينصت! هذا يقبض يديه إلى سرته، وهذا يقبضهما إلى صدره، وهذا يسدلهما إلى جنبيه!

قال لي صديق: أيسرك هذا التفاوت؟ قلت: كنت أوثر وحدة الصورة، لكني أدع الوضع كما ترى؛ لأن عنايتي بالموضوع أكثر من عنايتي بالشكل، ولأن هناك وجهات



نظر فقهية محترمة وراء هذا التفاوت، أكره الاصطدام بها.. !

المشكلة ليست في هذا الخلاف الفقهي، إنها فيما وراءه من غلو وتعصب، فالذي يمنع القنوت في الفجر وبعض جماعة القانتين يظن أنه استنقذ القدس من براثن اليهود ! ومَنَعَ بدعة تقود إلى النار !

المشكلة في الضحالة الفكرية والضغائن النفسية التي تغلف أولئك الناس، وهي آفات تفسد الطاعات ولا أحسب أن صلاة تقبل معها !

إن هؤلاء المتعصبين يعيشون داخل حجب سميكة، كما يعيش الكتكوت داخل قشر البيضة قبل الفقس لا يرى أرضه ولا سماءه إلا هذه الدائرة الضيقة..

والدين بداهة غير هذا، الدين لا خلاف في عناصره، قلب خاشع وفكر فاضل، وأمانات مرعية في تقلب المرء على ظهر الأرض منذ رشد إلى أن يلقي ربه !

ليختلف المسلمون في الفروع العملية وراء أئمة أربعة أو ثمانية، فالخطورة لا تنشأ من الخلاف الفرعي، إنما تنشأ من فساد الأفئدة والألباب !

على أن الخلاف يحسم، ويختار رأي واحد حتمًا عندما يتعلق الأمر بالدولة وشئونها الإدارية، وقوانينها الحاكمة في الدماء والأموال والأعراض !

لنفرض أن فقيهًا يرى أن طلاق البدعة يقع، وفقيهًا آخر يرى أن طلاق البدعة لغو، فهل تقف أجهزة الدولة في انتظار





غلبة أحد الاجتهادين ؟ إنها لن تدور أبدًا والحالة هذه !

وإثبات الطلاق لا بد من تدوينه في سجلات ، ومن رعايته في النسب والتوارث !

ومن حق الدولة أن تختار مذهبًا فقهيًا لتدير الأمور على أساسه ، وتحفظ الحقوق وفق نصوصه .

هل المخدرات خمر يعاقب على تناولها أم لا ؟ من حق الدولة أن تختار مذهبًا فقهيًا تجرم به تناول المسكرات والمخدرات جميعًا ، وتهمل المذاهب الأخرى .

ويطَّرد الأمرُ بالنسبة إلى قضايا القتل مع اختلاف الدين ، ومع الملابسات الأخرى .

ويمكن أن يتغير القانون ، وأن تترك الحكومة مذهبًا وتؤثر عليه آخر ، وذلك وفق نشاط الاجتهاد الفقهي ووزن الناس لمصالحهم المتجددة ، وذاك ما نشرحه في فصل آخر إن شاء الله .





٤٦ - ما مدى حرية الفكر في الإسلام؟ وكيف نوفق بينها وبين قتل المرتد؟

هناك فرق بين حرية القول وحرية الشتم ! وحرية العمل وحرية الإِيذاء ! أنا أقول ما أشاء وأفعل ما أشاء ولكن تقف مشيئتي عندما تبدأ حرية غيري وحقوقه .

وقد اقتنعت بأن كمال الإِنسانية وارتقاءها منوطان بوفرة الحريات الصحيحة ، واستطاعة كل إنسان أن يتمتع بها دون مشاكسة أو افتيات .

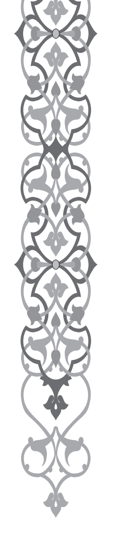
وقد قلنا في فصل مضى : إن حرية المرء هي الوجه الآخر لعبودية الله وحده ، فالمؤمن حقًا رجل تختفي من حياته رهبة الطواغيت ، يقول ويعمل غير مكترث إلا برضا الله وحده .

وحرية الفكر هي المهاد الأول ، أو المهاد الأوحد لمعرفة الله ، واستكشاف عظمته ، وتقرير حقوقه ، وإدراك هداياته .

عندما أسرح بعيني في الزروع والثمار استجابة لأمر الله ،

﴿ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓ ﴾

(الأنعام : ٩٩)







فأنا أسبِّح الله وأحمده، وإن لم يتحرك لساني بكلمة!

قد يكون هذا التسبيح الصامت معادلًا لركعتين من النوافل، وربما نما وأضحى معادلًا لركعتين من الفرائض! وذلك حسب قيمة هذا الفكر.

قد يكون تحيةَ إعزازٍ لمن أبرز الحياة من الموات، وأخرج ألوانًا وطعومًا شتى من أرض داكنة هامدة!

وقد يكون -إلى جانب ذلك- عنايةً بالمحاصيل الناتجة، وتكثيرًا لها، ودفعًا للآفات عنها، ونفعًا لعباد الله بها ودراسة ذكية للتربة، وطبيعة العمل فيها وإمكانيات الإفادة منها!

المهم في الجو الديني الصحيح ألَّا أثقل العقل بما يئوده عن الفكر المثمر أو هذا التسبيح الصامت. والتدين المخترَع والفاسد شديد المهارة في صرف المؤمنين عن العمل العقلي والقلبي، وتعليقهم بأشكال ورسوم وأوراد ما أنزل الله بها من سلطان.

مع أن هذه الأعمال ركن في الإيمان، وغيرها إما بدع، وإما نوافل لا تقبل إلا بعد اكتمال الفروض!

ليس هذا استطرادًا وإنما هو بيان لقيمة الحرية الفكرية التي اطردت الآيات في القرآن الكريم لتقريرها وتقديرها.. ولكننا للأسف لم نحسن فهمها ولا البناء عليها.



وقد ظفر أسلافنا بأنصبة كبيرة من تلك الحرية الغالية كانت وراء تفوقهم الحضاري وسيادتهم العالم زمانًا طويلًا.

ورأيي أن هذه الحرية خرجت على نفسها أو تحولت إلى فوضى خلقية في بعض الميادين، فليس من حرية الفكر أن ينشد أبو نواس خمرياته ويفرض شذوذه على الأدب العربي.

وليس من حرية الفكر أن ينشغل العقل الإسلامي بالبحث في ذات الله -متأثرًا بالفلسفة الإغريقية- ويترك البحث في المادة وخصائصها، وعندي أن الجانب الطبي في ثقافة ابن سينا ألمع وأضوأ من الجانب الفلسفي! وأن الحرية الفكرية عندنا انكمشت حيث يجب أن تمتد، وامتدت حيث يجب أن تنكمش، على أنها اعتلَّت في العهود المتأخرة، وكادت تموت، وذلك تبعًا لاضمحلال الحرية السياسية.

والحريات -كالفضائل- يقوِّي بعضها بعضًا وينميه. ومع ما أصاب الحريات إجمالًا من علل، فإن الحرية الدينية بقيت قوية وعاشت في ظلالها طوائف اليهود والنصارى والباطنية دون حرج، وما أحسب دارًا أخرى غير دار الإسلام، يقع فيها هذا التسامح!



لقد كانت الحرية الدينية أعصى الحريات على النقض، كان عرب اليمن يتقاتلون ويرخص بعضهم دم بعض، وكان يهود اليمن مرعيي الزمام مصوني الحقوق! وبقوا وافرين حتى التحقوا بإسرائيل!

ومن الطرائف التي يحكيها الأدباء أن الخوارج اعترضوا نفرًا من الناس، وأحبوا أن يتعرفوا هويتهم، وكان فيهم أبو حنيفة، فأسرع يجيب الخوارج: نحن مشركون مستجيرون! فلما تركهم الخوارج يمضون لشأنهم قال الإمام الفقيه: إن القرآن يقول:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾

(التوبة: ٦)

فأسمعونا كلامَ الله وأبلغونا مأمننا!! وفعل الخوارج ذلك، ونجا أبوحنيفة ومن معه من الفتك!

والقصة تستدعي التأمل! ولئن كانت مثار ريبة عند البعض، فإن التاريخ الإسلامي يصدق دلالتها، ويكشف عن العلة في بقاء الطوائف الكافرة بالإسلام وسط بحر مائج من الأمم الإسلامية، مما لا نظير له في القارات كلها!

ونتساءل بعد ذلك الاستعراض: هل من حرية الفكر أن يُسلِمَ رجلٌ ليتزوج امرأة مسلمة فإذا نال مبتغاه منها





وتحولت عاطفته عنها رجع إلى دينه الأول؟

أو من حرية الفكر أن يتصل شخص بأعداء أمته، وينقل إليهم أسرارها، ويتآمر معهم على مستقبلها؟

إنه لا بد من التفريق بين العبث بالأديان أو خيانة الأوطان وبين حرية الفكر!

فالمسافة شاسعة بين المعنيين!

وقد ذكرنا في موضع آخر كيف أراد اليهود استغلال هذه الحرية المتاحة لضرب الإسلام وصرف الناس عنه:

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (آل عمران: ٧٢)

فهل ترضى جماعة تحترم دينها أن يقع هذا العبث أو ينجح هذا التلاعب؟

إننا نريد أن نشرح حقيقة الارتداد وسر الموقف الحاسم منه.

معروف أن الإسلام عقيدة وشريعة، أو بتعبير عصرنا دين ودولة، والدولة التي تقيمها الجماعة المؤمنة مكلفة بما تكلف به الدول في أرجاء الأرض، فهي تنشر الأمان وتحميه وفق شرائعها الموحى بها من الله -تبارك وتعالى-.

وهي تدفع المغيرين وترد المعتدين مستثيرة الهمم



ببواعث اليقين وحب الاستشهاد وسائر خصائصها الذاتية الأخرى.

والسؤال الذي نورده: هل يُطلَب من هذه الدولة أن توهي خطوط الدفاع في الداخل والخارج، وأن تدع من شاء حرًا في نشر الفتن وتمزيق الصف ومساعدة العدو، وخذلان الصديق؟ أم لها أن تضرب على أيدي الخونة حتى يبقى كيانها سليمًا؟

إذا كانت الدولة الشيوعية تقيم التعليم العام على الإلحاد، وتنفي أو تغتال من يريدون بناءه على الإيمان، فهل الدولة الإسلامية وحدها هي التي تطالَب باحترام الإلحاد، والإسراع في إجابة مطالبه باسم الحرية؟ أنَّى يتماسك لها بعد ذلك كيان؟

قد ينحرف امرؤ فيشرب خمرًا أو حشيشًا، هذه معصية نرجو لصاحبها المتاب ثم نؤدبه بما رسم الإسلام! هل يستوي هذا المسيء مع رجل يدعو إلى ترك تجارة الحشيش حرة، وإلى فتح الحانات دون عائق؟

قد يواقع امرؤ منكرًا في بيته، من وراء جدار! هل يستوي هذا مع آخر يجاهر بإباحة البغاء، وترك الغرائز تتنفس كيف تشاء، ويرى أن الشذوذ لا حرج فيه، وعلى المجتمع الاعتراف بعقد بين شخصين من جنس واحد؟



قـد يتكاسـل امرؤ عن الصـلاة، فهل التـارك المتهاون يسـتوي مع آخر يهاجم فرائـض الصلاة والصيام، ويقول: إنها تعطل الإنتاج؟

إن الارتداد نقض متعمد متبجح للأسس التي يقوم عليها المجتمع، وللدسـتور الذي تقوم عليه الدولة، والزعم بأن هذا المسلك سائغ زعم سخيف.

وتـزداد خطـورة الردة على كيـان الدولـة إذا علمنا أن الغزو الثقافي ظهير وتمهيد للغزو العسـكري! وأن أعداء الإسلام يرون محو شخصيته في الداخل بفنون من الحيل، وأن الاستسلام لذلك هو استسلام للذبح.

نحن نرفض كل عائق أمام حرية الفكر، ونضع كل عائق أمام حرية الهدم، أي أمام تقويض الإسلام شريعة وعقيدة.

وعندمـا ننظر إلى تاريخنا الإسـلامي الطويـل نجد أن قتـال المرتدين إلـى آخر رمق تم دفاعًا عـن الدين والدولة معًا، وما سمعنا برجل قتل مرتدًا؛ لأنه ترك الصلاة مثلًا.. بل على العكس رأينا أبا نواس يرفض من يلومه في شـرب الخمر، ويقول في وقاحة:

دع عـنـك لـومـي فـإن الـلـوم إغـراء
وداونـي بالتي كـانـت هـي الـداء!!

فهل قتل أبو نواس، أو غيره بتهمة الردة؟



وقد لاحظت أن كثيرًا من أهل الشغف بتكفير مخالفيهم، يتخيرون من آراء الفقهاء ما يحلو لهم، ويهيلون التراب على غيره، فلما ثار كلام في عقاب تارك الصلاة كسلًا، لم يذكروا إلا أنه يقتل حدًا أو مرتدًا، ومعلوم من الفقه الحنفي الذي حَكَم الدولة الإسلامية قرونًا طويلة، أنه لا يقتل لا حدًا ولا مرتدًا، بل يؤاخذ بأساليب أخرى إذا جحد الحكم المعلوم من الدين بالضرورة.

إن الارتداد -كما شرحنا- خروج على دولة الإسلام بغية النيل منها ومنه، والإتيان عليها وعليه، ومقاتلة المرتدين -والحالة هذه- دِينٌ..

***





٤٧ - ما الاجتهاد؟
وهل هناك ضرورة لفتح بابه؟ ولماذا؟

يعلم المسلمون أن دينهم باقٍ ما بقيت السماوات والأرض، وأنَّ به تبيان كل شيء يحتاج الناس إليه! أي إن كتاب الله وسنة رسوله هما النور المبدد لكل ظلمة، الكاشف لكل حيرة، وهما الدواء الشافي من كل علة، والسادّ لكل خَلَّة.

والاجتهاد هو بذل الجهد في استخراج الحكم الشرعي من هذه الأصول، وفي ضبط مسيرة المجتمع بها، وهو عملٌ لا يقدر عليه بداهة كل إنسان، بل لا بد من أهلية علمية عالية له.

فالقرآن الكريم هو خلاصة الوحي الإلهي من أزل الدنيا إلى أبدها، صيغ في أسلوب يُعْجِزُ الإنس والجن، والسنة المطهرة هي توجيهات إنسان ملهم استدرج النبوات الأولى كلها بين جنبيه، وشرع يصوغ العالم كله باسم الله في قالب جديد، وقد أدرك أولو الألباب أن التغيير الذي أحدثه برسالته الخاتمة كان حاسمًا في سير الفكر والضمير، وأنه فتح صفحة جديدة في تاريخ الحياة الإنسانية.

ومن ثم فإن فقه الكتاب والسنة لا يرشح له إلا أهل النباهة والتقوى!





وفقهاء الإِسلام يرون أن مصدر التشريع -كما يقول الشيخ الكبير محمود شلتوت- «هو القرآن الكريم نصه ومحتمله، ثم السنة وهي أقوال الرسول وأفعاله وتقريراته، بشرط صحة النقل، ثم الرأي العلمي المستمد من النظر في الكتاب والسنة وإلحاق ما لم ينص على حكمه بما جاء فيه نص».

ويعني بذلك القياس، ثم في تطبيق القواعد العامة المفهومة من النصوص والقضايا الخاصة.

وهذه القواعد مثل «الأصل في الأشياء الإباحة» «منع الضرر» «رفع الحرج» «سد ذرائع الفساد» «الضرورات تبيح المحظورات» «ارتكاب أخف الضررين» «دفع المفسدة مقدم على جلب المصلحة» «تحمُّل الضرر الخاص لدفع الضرر العام» «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب» «ما أدى إلى الحرام فهو حرام» «ما قارب الشيء يعطى حكمه»... إلخ.

وهناك بعد ذلك ما يسمى بالمصالح المرسلة، وهو نهج فقهي غايته حماية النفس والمال والعرض والعقل والدين.

والواقع أن الفقيه في الكتاب والسنة، الذي يعيش في جوهما يقدر على استبانة مبادئ تنطلق الحياة منها، ورسم مسار تشريعي يضمن الرشد والخير للناس كافة، كما يستطيع أن يواجه القضايا المتجددة بأحكام إسلامية سديدة.

والفقه الإِسلامي الذي ورثناه مع مطالع القرن الخامس





عشـر للهجرة يعد أغنى فقه في العالم، والمهاد الذي يتحرك فوقه لا نظير له في دنيا الناس.

قـال الفقيـه الكبير الشـيخ محمود شـلتوت: «اسـتقبل أصحـاب رسـول الله بعد موته حيـاة أوسـع، إذ عرضت لهم شـئون احتاجوا إلـى تعـرف أحكامها، فكانـوا يرجعون إلى القـرآن، فـإن لم يجدوا فيـه ما يدل على حكمهـا بحثوا عنه فيما يحفظه العدول الثقات من بيان الرسول واجتهاده فإن لم يجدوا الحكم نظروا وبحثوا مسـتلهمين روح الشريعة، وما عرفوه من هدفها، وما ترشد إليه قواعدها العامة التي أضحت لها مكانة النصوص البينة».

وكان الشأن العام في عهد أبي بكر وعمر التحري الشديد فيمـا يـروى عن النبـي ﷺ والنزوع فـي الشـئون العامة إلى استشـارة كبـار الصحابـة المقيمين معهما فـي دار الخلافة! والمعروفين بدقة الـرأي، وعمق النظر، في إدراك المصالح، وحسـن الفهم لروح الشـريعة، وجودة التطبيق على القواعد العامة.

وكانوا إذا أجمعوا علـى رأي، وجب تنفيذه، وبذلك كان أخذ الرأي بطريق الشـورى مصدرًا جديدًا ظهر العمل به بعد وفاة الرسـول فيما لا نص فيه من كتاب أو سـنة، أو فيما فيه نص محتمل.





وترجع حتمية الرأي في التشريع إلى أمور:

أولًا: تقرير القرآن مبدأ الشورى

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾

(الشوري: ٣٨)

ثانيًا: أمر القرآن الكريم برد المتنازع فيه إلى أولي الأمر وهم الذين أوتوا الفهم والحكمة وطرق الاستنباط:

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾

(النساء: ٨٣)

ثالثًا: ثبوت إقرار النبي ﷺ لأصحابه الذين كان يبعثهم إلى الأقاليم النائية على الاجتهاد، والأخذ بالرأي فيما لم يجدوا حكمه في الكتاب أو السنة.

وظاهرٌ من مطالعة تاريخنا الثقافي أن الاجتهاد التشريعي بدأ رسميًا جماعيًا، ذلك أن رئيس الدولة كان يُخْتار من أهل الدراية والفقه، وكان بقدرته العلمية يجمع حوله أمثاله في النظر والاستنباط، فإذا انتهوا إلى حكم عملت به الدولة والأمة جميعًا.

والدول العظمى الآن تقوم على هذا الاجتهاد الجماعي في دعم مبادئها ومصالحها، ويغلب أن يقودها أكفأ بنيها، وأن يعاونه في المشكلات المتجددة مجلس شورى ذكي نزيه





حافل بشتى الكفاءات.

مع ملاحظة أن الاجتهاد عندنا رحب الدائرة، يشمل العبادات والمعاملات والشئون الشخصية والدولية، وقد رأينا عمر -رضي الله عنه- يجتهد في تحديد نفقة المطلقة ثلاثًا وسكناها، كما يجتهد في أنصبة المجاهدين من غنائم الأرض المفتوحة!

ولم تخل عاصمة إسلامية قديمًا من فقيه كبير، وإمام مرموق، على أن الفقهاء الأربعة المتبوعين كانوا أسعد حظًا فرُزقوا من حَفِظَ اجتهادهم وضبط تراثهم، واستنقذه من الضياع، وفِقهُ أولئك الأربعة على عظمته يمثل الاجتهاد الفردي، ويحمل خصائصه، وما يغني قط عن الاجتهاد الجماعي الذي تلتزم الحكومة والجماهير بثماره!

ولا ريب أن اجتهاد محفل من العلماء أدنى إلى الصواب والنفع من اجتهاد إمام فرد، والأربعة المشهورون يتفقون على استقاء الأحكام من الكتاب والسنة والإجماع، إلا أن الأحناف يرجحون ظواهر القرآن وعموماته على أخبار الآحاد، وربما ردوا الحديث بالقياس الجليّ، وهم بهذا المسلك وغيره طليعة فقهاء الرأي!

ويليهم المالكيون الذين اعتمدوا في كثير من القضايا على بيئة الوحي، وتقاليد أهل المدينة، ويرونهم أعرف





الناس بالسنة الثابتة، وقد جعلهم هذا الفهم يَردُّون أخبارَ آحاد أكثر مما رد الأحناف!

أما الحنابلة ومعهم الشافعية، فارتباطهم بأخبار الآحاد أقوى، وهم يردون بها القياس.. ولكل إمام منهج في الفهم والاستنباط وتقرير الأحكام عُرِف به وقلده فيه آخرون.

ويظهر أن انفتاح باب الاجتهاد الفردي أغرى كثيرين باستقلال النظر وتقرير الأحكام حتى تحولت الحرية الفقهية إلى فوضى، فتداعى أولو الغيرة لوقف هذا التيار، ودون أن ينعقد مجتمع أو يتفق مؤتمر تراجع الناس رويدًا رويدًا إلى فقه الأربعة المشهورين، وأُهمل غيرهم.

وقد كنت أول الأمر ناقمًا على إغلاق باب الاجتهاد، ولكن لمَّا انكسر الباب وتحدث في الإسلام من يعقل ومن لا يعقل، بل كان صوت المرتزقة أعلى من صوت المخلصين! عذرتُ الذين أغلقوا الباب، وأطفئوا الفتن.

أيعني ذلك أني لا أريد فتح هذا الباب؟ كلَّا!

إن الاجتهاد التشريعي، خصوصًا فيما يمس المعاملات الداخلية والخارجية ضرورة دينية واجتماعية!

والذي أدعو إليه أن تقوم مجامع كبيرة، من علماء راسخين، لا يخافون في الله لومة لائم، يُحْيُون الاجتهاد الجماعي القديم، ويقومون بعملين مهمين.





الأول : إنعاش أو إحياء الفقه الدولي لتحديد أوضاعنا العالمية ، وإعادة النظر في أنظمة الحكم الداخلية لإنقاذ المسلمين من مساوئ الحكم الفردي ، ومظالم المستبدين ، وإنشاء شرائع إدارية تضبط شئون العمال وتوزيع الأموال ، وتصون الحقوق الخاصة والعامة .

إننا متخلفون بضعة قرون في هذا المجال ، ولا يجوز ترك الإسلام يفترسه هذا الموت الأدبي !

أما العمل الثاني : فهو مراجعة المذاهب الفقهية السائدة ، وغربلة أحكامها ، فمن الغرور القول بأن مذهبًا ما انفرد بالصواب كله ، ومذهبًا آخر يغلب عليه التخليط .. إن المذاهب المشهورة وغيرها تحتوي على تراث نفيس من الأفكار وجهد عقلي ونقلي قد يقصر أغلبنا عن بلوغ مستواه ، بيد أن القول المشهور شيء ، والتحقيق العلمي شيء آخر .

ووجود مجمع فقهي إسلامي عالمي ، يجتهد فيما جَدَّ من قضايا ، وفيما عانينا من فرقة وضعف أمرٌ لا بد منه .





الفهرس

٢٥- لماذا كان الحل الإسلامي لمشاكلنا هو الأفضل والأمثل والأنجع؟ ٣

٢٦- ماذا صنع الإسلام لحفظ العقل والنفس والمال..؟... ٩

٢٧- ما دور الإسلام في ترشيد الضمير الإنساني؟ ١٧

٢٨- ما موقف الإسلام من العنصرية السائدة في بعض الحضارات؟ ٢٤

٢٩- ما موقف الإسلام من مظاهر الحضارة الحديثة، السينما والمسرح والموسيقى والفنون جميعها، كالرسم والنحت والتصوير؟ ٣١

٣٠- كيف أعلن الإسلام حقوق الإنسان..؟..........٣٨

٣١- هل مسئولية المسلم تجاه المجتمع الإسلامي وحده أم تجاه المجتمع البشري كله.. كيف؟ ٤٤

٣٢- ما تأثير القرآن في الفكر الإنساني..؟..........٥١



٣٣- كيف ولماذا، وقع النسخ في القرآن..؟ ٥٩

٣٤- هل الاستدلال القرآني في قضية الألوهية على الوجود أم على التوحيد؟..............................٦٩

٣٥- ما أهمية القصص في القرآن؟ وهل لها أصل تاريخي؟ وما الحكمة في تكرارها؟ ٧٧

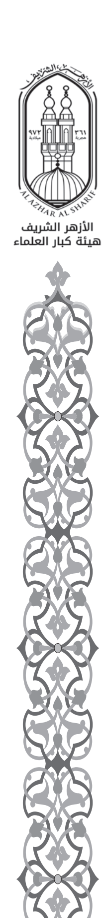
٣٦- ما تفسير الآيات التي قد تصف الله -سبحانه وتعالى- وصفًا ماديًا؟ مثل ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ ...٨٦

٣٧- كيف تفسر ما ذكره القرآن من أن السماوات سبع والأرضين سبع مع حقائق العلم التي ترى أن الأرض واحدة والسماء فضاء؟ ٩٣

٣٨- هل تم جمع القرآن بطريقة تدحض كل شك؟ وكيف تم جمعه؟ ١٠١

٣٩- ما الفارق بين القرآن، والحديث القدسي، والحديث النبوي؟..................................١٠٨

٤٠- ماذا لو تعارض الحديث مع القرآن الكريم؟.... ١١٥



٤١- هل الصورة التي رسمها القرآن لخلق آدم حقيقية أم رمزية؟ وما معنى الحديث (خلق الله آدم على صورته)؟! ١٢٣

٤٢- هل يؤخذ القرآن بنصه؟ أم على أساس الظروف التي نزلت فيها آياته؟ ١٣٠

٤٣- ما حاجة الإنسان إلى الإيمان باليوم الآخر؟ وما أثر إنكاره على السلوك الإنساني؟..................... ١٣٧

٤٤- ما أثر الإيمان على الأخلاق والسلوك والضمير، على ضوء ما يحدث في الدول المتقدمة التي تأخذ بالعقل ونتائج العلوم فقط؟ ١٤٥

٤٥- لماذا كانت المذاهب الفقهية المعمول بها أربعة؟ وما ضرورتها؟.................................. ١٥٢

٤٦- ما مدى حرية الفكر في الإسلام؟ وكيف نوفق بينها وبين قتل المرتد؟............................ ١٥٩

٤٧- ما الاجتهاد؟ وهل هناك ضرورة لفتح بابه؟ ولماذا؟...... ١٦٧